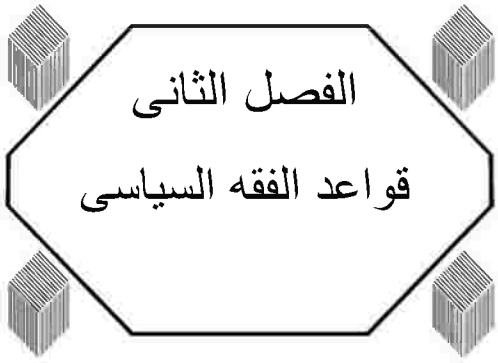
الفصل الثانى
قواعد الفقه السياسى

المقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ {آل عمران ١٠٢}. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ {النساء ١}. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾{الأحزاب ٧٠-٧١}.

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسنَ الهدي هدي محمد (ﷺ)، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة، وكلَّ ضلالة في النار.

ثم إن العلوم الشرعية ضرورة لازمة لنجاة العباد في الدنيا والآخرة، وشرف العلم بشرف المعلوم، وأشرف العلوم وأسماها على الإطلاق بالنسبة للفرد، علم التوحيد بأقسامه الثلاثة (الألوهية، الربوبية، والأسماء والصفات)، ثم تتفاوت درجات العلوم بقدر تفاوتها في حفظ مقاصد الشريعة الإسلامية، وإن من أسمى مقاصدها، حفظَ الضروريات لقيام الحياة الإنسانية، وأهمها: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

فمن العلوم ما يكون مقصده حفظَ الدين، كتعلم ما هو معلوم من الدين بالضرورة من علوم التوحيد وبعض علوم الفقه، والعمل بأحكام الدين والحكم به والدعوة إليه والجهاد لأجله ورد الشبهات والبدع عنه. ومن العلوم ما يكون ضرورياً لحفظ النفس، كتحريم الاعتداء على الأنفس، والقصاص، وسد الذرائع المؤدية للقتل. ومنها ما هو ضروري لحفظ المال، كالحث على التكسب، وتحريم الاعتداء عليه، وتحريم إضاعته، وتعلم ما شرع من الحدود لحفظه، وتوثيق الديون

والإشهاد عليها. ومنها ما هو ضروري لحفظ النسل، كأحكام النكاح، ومنها ما هو ضروري لحفظ العقل، كتحريم مفسدات العقل الحسية والمعنوية، ووجوب الحد على شارب الخمر.

أما أعظم العلوم بالنسبة للجماعة-مع عظم علم التوحيد وأهميته للفرد والمجتمع-فهو ذلك العلم الذي يَحْفَظُ لها هذه الضرورات كلها، الدين ومنه التوحيد، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. وقد اتفق العلماء على حقيقة هذا العلم، واختلفوا في تسميته، فالماوردي الشافعي سمّاه: (الأحكام السلطانية)، وإمام الحرمين الجويني سماه: (غياث الأمم)، وابن جماعة سماه: (تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام) وابن تيمية سماه: (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)وغيرهم.

فكلٌّ مِن تسمية ابن تيمية هذه، والتي قبلها، و(غياث الأمم)، تدل على ما ذهبْتُ إليه من أن هذا العلم من أهم العلوم بالنسبة للجماعة، لأن الجهل به يؤدي إلى التصرف مع الآخرين بحماقة تضيع هذه الضرورات، أو بعضا منها.

وممن كتب في هذا العلم الذي يَحْفظ للمجتمع هذه الضرورات كلها، من المعاصرين، الدكتور يوسف القرضاوي، سماه: (السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها)، والدكتور خالد الفهد، سماه: (الفقه السياسي الإسلامي)، والدكتور خالد العنبري، سماه: (فقه السياسة الشرعية في ضوء القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة)، وغيرهم مما يدل على أهمية هذا العلم بالنسبة للجماعة.

وعليه فإن إسقاط هذا النوع من الفقه السياسي من الأمة، سواء كان ذلك بسبب إنكاره، أو بعدم تفعيله وتطبيقه، أو بفهمه خلاف الواقع، يترتب عليه مخاطر لا حصر لها تصيب من الأمة الإسلامية مَقَاتِلَ. وها نحن جميعا شيباً وشباباً، ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً، ندفع الثمن غالياً جراء تلك السياسة الدخيلة على الإسلام، التي جَرَتْ على ألسنة بعضِ الشباب المعاصرين،حين ألقَوْا بهذا الفقه من خلف أظهرهم، وتجردوا منه، بل ذهب بعض سفهاء الأحلام، حدثاء الأسنان منهم، إلى التصريح بإنكاره، والإنكار على العلماء الكبار العاملين به، بل طعنوا فيهم وفي علمهم، فخلا الجو لهم-حسب زعمهم- ليتصدروا الفتوى بلا علم في الشريعة، وبجهل في الواقع، فضلوا وأضلوا.

وقد نقل لنا ابن القيم مؤيداً لما جرى بين شافعي وابن عقيل في تفسير قول الشافعي: (لا سياسة إلا ما وافق الشرع).

فقال له ابن عقيل: (السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول (ﷺ)، ولا نزل به وحي. فإن أردت بقولك: إلا ما وافق الشرع، أي: لم يخالف ما نطق به الشرع، فصحيح. وإن أردت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع فَغَلَطٌ وتغليط للصحابة. فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والتمثيل ما لا يجحده عالم بالسنن، ولو لم يكن إلا تحريق عثمان المصاحف فإنه كان رأياً اعتمدوا فيه مصلحة الأمة، وتحريق علي ﷺ الزنادقة في الأخاديد، وقال:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبراً))[1]

انتهى)).

لذا فإنه من الواجب على فريق من العلماء العاملين، أن يولوا هذا العلم في هذا الزمان أولوية خاصة، وبأسرع ما يمكن لوقف نزيف الدم، والدمار الشامل المحدق بالأمة الإسلامية. كما وعلى شباب الصحوة أن يتعلموه جنباً إلى جنب، مع علوم التوحيد، والفقه وأصوله، والقرآن وعلومه، وعلوم اللغة، ولا يرغبوا عنه بحجج لا يستقيم أمرها، ولا تقف أمام واجب التفقه في الواقع المطلوب من كل فرد بحسبه.

وعليهم كذلك أن يعلموا عن أي الجهات يأخذونه ويتعلمونه، وعليهم أن لا يسلموا قيادتهم الفكرية لمفاهيم ونظرات حزب التحرير السياسية، المتأثرة بنظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ، ولا لمن أعجب بفكره، أو تأثر به، فإنها الطامّة الكبرى والهلاك بعينه. بل أصبحت هذه المفاهيم والنظرات السياسية التحريرية هي الحاكمة على تفكير كثير من الشباب والشياب والذكور والإناث دون شعور منهم، فخرج جل جهدهم وجهادهم عن المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، وتراهم بعد حين من بذل الجهود والطاقات، خاصة حدثاء الأسنان

---

(١) (الطرق الحكمية)، (ص ١٧-١٨).

منهم، يقومون بمراجعات فكرية لتصحيح الأفكار والاستغفار عن الأخطاء والأخطار.

لذا فإن التقليل من شأن هذا العلم، أو فهمه على خلاف الواقع، يضعنا أمام مواجهة غير متكافئة مع ألد خصومنا وأعدائنا، الذين يتربصون بديننا وبالضرورات الأربع الأخرى وبغيرها الدوائر، مما يعرضنا إلى سخط الله تعالى، بل قد يدفع بنا الأمر إلى أن نكون من الأخسرين أعمالاً، مع اعتقادنا بأننا نحسن صنعاً، كما حصل لنا في بعض ديار المسلمين، ولا يزال الأمر مرشحاً للتكرار.

ولكي نفقه واقعنا السياسي المعاصر، لا بد من توفر أمرين اثنين:

- العمل بأحكام الشريعة الإسلامية، أولها علوم العقيدة، فأركان الإسلام الخمسة، والقيم الأخلاقية لتزكية النفس، كالعدل والصدق والأمانة والعفاف والرحمة، وغيرها.
- معرفة الواقع معرفة صحيحة، بعيدة عن التضليل والخداع.

لذا فإن هذه الدراسة اكتفت ببيان بعض الموضوعات ذات العلاقة بفقه السياسة الشرعية، وتَركَتْ للقارىء الرجوع إلى مَظانّ هذا العلم لاستدراكه لمن قصّر في الإحاطة به.

ثم كشفت الدراسة عن مصدر الخطر والدمار ـ أعني اليهودية ـ الذي أصاب الأمة الإسلامية، وكشفت كذلك عن أخطر أذرعها التي ابتليت به أمتنا والعالم أجمع في واقعنا المعاصر، والذي لا يزال يقتلنا في كل مكان، ونحن لا نشعر به ولا نراه، بل ذهب بنا الأمر إلى ما هو أسوء من ذلك،حين نسبنا جميع جرائمه إلى غيره، فتوجهنا إلى محاربة هذا الغير وتركنا هذا العدو الأول والأخطر يحاربنا في ديننا، ويهدم مقدساتنا بمئات الآلاف من المساجد، ويسفك دماءنا بمئات الملايين، ويحتل أرضنا بعشرات الملايين من الكيلومترات المربعة، وينهب ثروات بلادنا بالمليارات، وينتهك أعراضنا، بل لم يكتف البعض بتجاهل هذا الخطر الاشتراكي الشرقي الداهم المتواصل-مع اعتبار الخطر الغربي-بل ذهبوا إلى التحالف معه بحجة التقاء المصالح، ولم يدروا أنها مصالح مزورة موهومة، فكانت النتيجة دماراً على دمار، وخراباً على خراب، وإفساداً في الأرض باسم الجهاد.

لهذا ولغيره، صيغت أفكار هذا البحث القليل في صفحاته، الكبير في أهميته عسى الله تعالى أن يهدي به من يشاء من عباده.

تعريفات أصولية

تعريف قواعد الفقه السياسي

القاعدة لغةً: هي الأساس. واصطلاحاً: حكم كلي ينطبق على جميع جزئياته أو أكثرها، لتِعرَفَ أحكامها منه.

القاعدة الفقهية: هي المبادىء العامة في الفقه الإسلامي التي تتضمن أحكاماً شرعية عامة تنطبق على الوقائع والحوادث التي تدخل تحت موضوعها[1].

ومن الأمثلة على القواعد الفقهية: (الأصل في الكلام الحقيقة). (الأمور بمقاصدها). (اليقين لا يزول بالشك). (لا اجتهاد في مورد النص). (الأصل براءة الذمة). (المشقة تجلب التيسير). (الضرورات تبيح المحظورات). (الضرورة تقدر بقدره). (لا ضرر ولا ضرار). (درء المفاسد أولى من جلب المصالح)، وغيرها.

فالقواعد العامة وُضِعَتْ لتحقيق المصالح الضرورية والحاجية والتحسينية، ونحن لن نتوسع في مباحث الفقه السياسي، في هذا البحث، ولكن أردنا إلقاء الضوء على أهمية هذه القواعد الفقهية في مجال السياسة الشرعية، أو ما يسميه البعض الفقه السياسي، فإن لهذه القواعد مصادرها الخاصة، فقد كُتب الكثير في هذا الباب قديماً وحديثاً[2].

الفقه السياسي:

(هو مجموعة الأحكام الشرعية التي تتناول الأحكام السياسية، كالحكم، وإدارة الدولة، والعلاقات الخارجية. وهذه الأحكام مستنبطة

---

(١)(المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية) ، د. عبدالكريم زيدان، (ص٩٠).

(١)(من هذه المراجع: (الاشباه والنظائر)، للسيوطي، (الفروق)، للقرافي، (إعلام الموقعين)، لابن القيم، و(الاعتصام)، للشاطبي، وغيرها.

من مصادر الفقه الإسلامي، بالإضافة إلى الأعراف والتقاليد التي درجت عليها الدولة الإسلامية بما لا يتنافى والمبادىء الإسلامية)[1].

ويعرفه الأستاذ عبدالوهاب خلاّف بقوله:

(إن علم السياسة الشرعية يُبحث فيه عَمّا تُدَبّر فيه شؤون الدول الإسلامية من القوانين والنظم التي تتفق وأصول الإسلام، وإن لم يقم على كل تدبر دليل خاص) [2].

العمل السياسي:

(مجمل النشاطات والمواقف والآراء السياسية التي يتبناها الأفراد، أو الجماعات تجاه الدولة، أو الحكم)[3].

مدى الحاجة لقواعد الفقه السياسي:

لا شك أن الكتاب والسنة هما رأس مصادر التشريع الإسلامي، ولا شك كذلك في ضرورة توفر الضوابط والأصول العامة لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، وهذه القواعد والأصول قد بسطت فيما يعرف بكتب أصول الفقه الإسلامي. وعلى طالب العلم أن يرجع إليها في مظانها ليستقيم أمر الفقه لديه، ومنه فقه السياسة الشرعية الذي نحن بصدد دراسة بعض مباحثه وفقهه المعاصر.

-(فقواعد الفقه السياسي الإسلامي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتحقيق مقاصد الشريعة وأهدافها العامة. والمصالح المرسلة تدخل – ضمناً-في مصادر تلقي الأحكام الشرعية المنضبطة بقواعد كلية)[4].

---

(٢)(الفقه السياسي الإسلامي)، د. خالد الفهداوي، (ص: ٧٨)، الطبعة الأولى، (٢٠٠٣).

(٣)(السياسة الشرعية ونظام الدولة)، (ص٢١)، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٥٠هـ. عن كتاب (الفقه السياسي الإسلامي) ، د. خالد الفهداوي، (ص٧٨).

(٤) المرجع السابق، (ص٧٨).

(١) المرجع السابق، (٧٨).

ولبيان خطر التفريط بهذا الفقه، أو فهمه بخلاف الواقع، نضرب لذلك مثالاً نظرياً وآخر واقعياً:

المثال النظري على أهمية الفقه السياسي:

لو فرضنا وجود عدوين للمسلمين، الأول (س)، والثاني (ص)، وكان العدو (س) أشد عداءً للإسلام وللمسلمين، من العدو (ص) بعشرة أضعاف. ولكن لو استطاعت جهة مّا لظرف من الظروف، أن تُغيّر هذه الحقيقة لدينا، فأصبحنا ننظر إلى العدو الثانوي (ص) على أنه العدو الأكبر والأخطر علينا من العدو (س) أضعافا كثيرة. ماذا سيترتب على ذلك؟

لا شك أننا سنوجه جميع طاقاتنا لمحاربة العدو الوهمي أو الثانوي (ص)، ونترك العدو الحقيقي الأكبر يفتك بنا، ولن نشعر ونحن نتجاهل الخطر الأكبر بأننا مُضَلّلون أو مخدوعون أبداً. لأننا نعتقد بصحة تصوراتنا وفهمنا للواقع، ولا نحسب أننا على غير هدىً البتة. ولك أن تتصور ما سيحل بالأمة الإسلامية إذا استمرت على هذه الحالة من التضليل السياسي الذي قلب الحقيقة واستنزف الطاقة.

هذه نتيجة تصوراتنا الخطأ في تصنيف الأعداء، فكيف إذا ازداد الأمر بنا سوءا، فأصبحنا نرى المعروف منكرا والمنكر معروفاً كما هو حاصل معنا هذه الأيام؟

ومن أمثلة هذه الحالة التي نرى فيها المعروف منكرا والمنكر معروفاً، ما أخبر عنه النبي(ﷺ) في زمن السنوات الخداعة، التي يُصَدّق فيها الكاذب ويُكَذّب الصادق، ويُخَوّنُ فيها الأمين ويُؤتمن الخائن. وهذه المظاهر الخداعة إنما نتجت عن الجهل في فقه الواقع السياسي، وقيام جهات مشبوهة بعكسه لدى المسلمين، فتنبه.

المثال الواقعي على أهمية الفقه السياسي:

وهذا مثال واقعي قديم دلّ على وقوع المسلمين في حبائل التضليل السياسي، حين رأوا المعروف منكرا والمنكر معروفاً، فصدقوا الكَذَبَة، وكذبوا الصادقين، وأتمنوا الخونة، وخونوا الأمناء.

كان هذا المثال في القرن الرابع من الهجرة في زمن الخلافة العباسية. فبعد أن وطدت الدولة الفاطمية العبيدية الشيعية أركانها في

بـلاد المغـرب العربـي، (بعـث عبيـدالله المهـدي أول خلفـائهم جيوشـه لافتتاح مصر، أكثر من مرة. وعلى الرغم من استيلائها سنة (٣٠٢هـ-٩١٤م)، علـى بعض المدن المصرية كبرقة والاسكندرية والفيوم، إلا أنهـا ارتـدت علـى أعقابهـا أمـام المقاومـة المصـرية وجنـد الخلافـة العباسية)[١]، فـي عهد الدولـة الإخشيدية. وفـي سنة (٣٣٢هـ-٩٤٤م) أعادت الجيوش الفاطمية الاستيلاء على الاسكندرية، ولكنها رُدّتْ مرة أخرى.

(وبعـد هـذا الفشـل المتكـرر الـذي منيـت بـه القـوة العسـكرية الفاطمية، أمام المقاومة المصرية وجند الخلافة العباسية، اعتمد المعز الفـاطمي لإسـقاط مصـر علـى أسـلوب الدعايـة التحريضـية مـن خـلال (دعاة يبثون دعوته خفية، ويبشرون بالفتح الفاطمي)[٢].

واستمرت هذه الدعوات المشبوهة لعدة عقود في جو مشحون بالخلافات والفوضى والاضطراب في أواخر حكم الدولة الإخشيدية في مصـر، فأخـذ الشـعب المصـري ينقم علـى ولاة أمـره، حتـى وصـلت المعارضة للخلافة العباسية إلى ذوي الشأن من الزعماء والجند، فقد كان فريق من أولئك الجند هم الذين دعوا الفاطميين إلى غزو مصر. وازداد سـخط الشـعب المصـري علـى ولاة أمـره، بعـد أن تـولى حكـم مصر أسود خصي، اسمه (كافور).

وكانـت الدولـة الفاطميـة تجلـب إليهـا الأنظـار بقوتهـا وغناهـا، فأصبح سواد الشعب المصري يؤثر الانضواء تحت لواء دولـة قويـة فتيـة، (الدولـة الفاطميـة)، علـى الاسـتمرار فـي معانـاة هـذه الفوضـى السياسية والاجتماعية التي سادت بلاد مصر. وهكذا ألفى الفاطميون حين مقدمهم إلى مصر، جواً ممهداً يبشر بتحقيق الفتح المنشود على

---

(١)(الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية)، لمحمد عبد الله عنان، (ص ١٨-٢٢)، ط/٣، ١٩٨٣. بتصرف.

(٢) المصدر السابق، (ص٢٩).

خير الوجوه)[1]، أهـ. فتم لهم السيطرة على بلاد مصر في منتصف شعبان سنة ٣٥٨هـ.

فإذا علمت أن نسب الفاطميين الشيعة يعود على الأرجح إلى اليهود[2]، وليس إلى المجوس، أدركت مدى درجة الغثائية التي كانت تتسم بها الشعوب الغافلة المسلمة في بلاد مصر، حيث استطاعت الجاسوسية اليهودية أن تنفث سمومها في عقولهم، مستخدمة شتى أنواع الدعاية المغرضة، فجعلتهم ينظرون إلى الدولة الفاطمية بروح الإعجاب، فصدقوا الكَذَبَة، وائتمنوا الخونة. وكذّبوا الصادقين، وخونوا الأمناء ولاة الأمر في دولة الخلافة العباسية، بل تآمروا عليها وعلى ولاة أمورهم، وانضموا إلى السياسة اليهودية لإسقاطها، بل رحبوا بها وفرحوا بنصر الكَذَبَة الخَوَنَة عليها، فماذا كانت نتيجة عدم الوعي، والتضليل السياسي الذي أصيبوا به؟

كانت النتيجة الدمار الشامل الذي أصاب الضرورات الخمس للحياة الإنسانية، فقد عطل الفاطميون الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبّوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادّعوا الربوبية. وصادروا الأملاك (التأميم)[3].

فلما علم الناس حقيقة أمرهم ضاقوا بهم ذرعاً، وسبّوهم ولعنوهم، حتى أصدر فيهم علماء العصر فتوى تحذر منهم ومن شرهم وتبين لهم حقيقة أمرهم، وما كان لهؤلا العلماء ولا لغيرهم من العامة، أن

---

(١) المصدر السابق، (ص١-٢٩)، بتصرف. وقد اعتمد المؤلف على العديد من المراجع التاريخية، منها: كتاب: (الخطط) للمقريزي، (١٢٦/٢-١٢٧). وكتاب: (وفيات الأعيان) لابن خلكان في ترجمة القائد جوهر، (١٤٨/١). وانظر (٤٤٠/٣). وكتاب: (اتعاظ الحنفاء) (ص١٤٦-١٤٧).

(٢) كتاب:(النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) ابن تغري بردي،٠٤/٧٥-٧٦). وكتاب: (وفيات الأعيان) لابن خلكان، (٨٢/٣). وكتاب: (معجم البلدان) لياقو الحموي، (٢٣٠/٥-٢٣١). وكتاب: (سير أعلام النبلاء) للذهبي، (١٤١/١٥-١٤٢).

(٣) مصادرة الأملاك ذكرت في كتاب: (الخطط أو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) للمقريزي، (٢٣/٣). وكتاب: (تاريخ يحي الانطاكي)، (ص٢٠٦).

يخدعوا بهذه الدعوة الباطنية الكاذبة ابتداءً، لو أنهم درسوا عقائدها ومذهبها، ولما رحبوا بهذه الدولة الباطنية في بلادهم.

وهذا هو حكم علماء العصر فيهم، بعد أربع وأربعين سنة من احتلالهم لبلاد مصر، ينقله لنا ابن تغري بردي فيقول:

(السنة السادسة عشرة من ولاية الحاكم منصور على مصر: وهي سنة اثنتين وأربعمائة، فيها في شهر ربيع الآخر كتب الخليفة القادر العباسي محضراً في معنى الخلفاء المصريين والقدح في أنسابهم وعقائدهم وقرئت النسخ ببغداد، وأخذت فيها خطوط القضاة والأئمة والأشراف بما عندهم من العلم بمعرفة نسب الديصانية، قالوا: وهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي إخوان الكافرين ونطف الشياطين شهادة يتقربون بها إلى الله ومعتقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم، حكم الله عليه بالبوار والخزي والنكال: ابن معد بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد، لا أسعده الله. فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبيد الله وتلقب بالمهدي هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس، عليه وعليهم اللعنة، أدعياء، خوارج، لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، وأن ذلك باطل، وزور، وأنهم لا يعلمون أن أحداً من الطالبيين توقف عن إطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء. وقد كان هذا الإنكار شائعاً بالحرمين في أول أمرهم بالمغرب، منتشراً انتشاراً يمنع من أن يدلس على أحد كذبهم، أو يذهب وهم إلى تصديقهم، وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه، كفار وفساق فجار زنادقة ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، قد عطلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية.

وكتب خلق كثير في المحضر المذكور الذي حرر في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة منهم:

الشريف الرضي، والمرتضى أخوه، وابن الأزرق الموسوي، ومحمد بن محمد بن عمر بن أبي يعلى العلويون، والقاضي أبو محمد عبد الله بن الأكفاني، والقاضي أبو القاسم الجزري، والإمام أبو حامد الإسفرايني، والفقيه أبو محمد الكشفلي، والفقيه أبو الحسين القدوري الحنفي، والفقيه أبو علي بن حمكان، وأبو القاسم التنوخي، والقاضي أبو عبد الله الصيمري. انتهى أمر المحضر باختصار. فلما بلغ الحاكم قامت قيامته وهان في أعين الناس لكتابة هؤلاء العلماء الأعلام في المحضر[1].

---

(١) (النجوم الزاهرة) (٤/ ٢٢٩-٢٣١).

وفي ترجمة ابن الشواء، أورد كمال الدين عمر بن أبي جرادة أنشودة له، يصف فيها تمكن اليهود في عصره:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر قد نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك)[1]

وقد صور لنا الأستاذ محمد عبدالله عنان، مشهد انتقام شعب مصر وجيشه الساخط من الدولة الفاطمية التي خُدِعوا بها، والتي طالما لعبت في عقولهم، وعاثت في أرضهم الفساد، وحكمتهم بالحديد والنار، في صفحة (٢٠٩-٢١٠) من كتابه: (الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية). فكانت نهاية دولتهم في سنة (٤١١)هـ.

هذه إحدى التجارب المرّة التي لدغنا منها، ولم تكن هي الأولى أبداً، وليست الأخيرة قطعاً، فلا زلنا نلدغ من نفس الجحر اليهودي بأساليبه المتطورة مع الزمن بصور وأشكال متعددة، وحقيقته واحدة.

الأسس الضرورية لفقه واقعنا السياسي:

ينبثق الفقه السياسي أساساً من العقيدة الإسلامية، ومعززاً بالشعائر التعبدية، ومؤيداً بالقيم والأخلاق النبيلة. وهو يقوم على مجموعة من الأسس الضرورية لجلب المصالح وتكثيرها، ودرء المفاسد وتقليلها، وهذه الأسس يعتمد بعضها على بعض وهي:

أولاً: فقه الواقع ثانياً: فقه الموازنات
ثالثاً: فقه الأولويات رابعاً: فقه التغيير

أولاً: فقه الواقع

تعريفات:

الفقه لغة: مطلق الفهم. ﴿قَالُواْ يَشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ {هود٩١}، أي: لا نفهم كثيراً مما تقول، ومن دعاء الرسول (ﷺ) لابن عباس رضي الله عنهما: **(اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل)**[1]. أي: فهمه معناه.

---

(٢) (بغية الطلب في تاريخ حلب)، (٢/٦٩٦- ٦٩٧)، ط/، ١٩٨٨

الواقع:

هو مجموعة الحقائق والسنن الكونية، ومنها الفطرة الإنسانية، وكلها محكمة، أي: لا تتبدل ولا تتحول. يضاف إلى الواقع كذلك كل ما يحدث من حوادث.

فقه الواقع:

هو فهم ومعرفة الحقائق والسنن الكونية، والفطر الإنسانية، معرفة يقينية. لتساهم في مواكبة الواقع المعاصر ومعايشته على أكمل وجه، إذ أن الشريعة الإسلامية دعت إلى التفاعل مع السنن الكونية للإفادة منها، والحذر من مخاطرها، ضمن الثوابت، والأصول التي لا يعذر المسلم بالخروج عنها.

أهمية فقه الواقع:

الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء، بل هو المتفرد بالخلق دون غيره، ولا يسأل عما يفعل، فقد شاءت الله تعالى أن يخلق هذا الكون بما فيه من أرض وسماوات وما بث فيهما من دابة، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ {الشورى:٢٩}. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾{الأعراف:٥٤}. قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ): فيه مسألتان: الأولى: صدق الله في خبره فله الخلق وله الأمر خلقهم وأمرهم بما أحب.

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) أي:له الملك والتصرف.

---

(١) متفق عليه.

فالخلق: هو الكون بما فيه من جمادات وأحياء، وهو نتيجة لأمر الله تعالى بأن يكون، فكان. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ {النحل:٤٠}. وفقه هذا النوع يسمى: (فقه الواقع) الكوني.

والأمر على عدة أحوال:

- أمر الله تعالى وكلمته التي بها خلق الجمادات والأحياء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ {النحل:٤٠]. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ {يس:٨٢}. وهذا النوع من الأمر المتعلق بإيجاد المخلوقات، يسمى كذلك بـ (فقه الواقع) الكوني.

- أمر الله تعالى لتدبير الكون بما فيه من جمادات وأحياء: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾{يونس:٣}. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ {الروم:٣٠}. وهذا الأمر هو السنن الكونية التي فطر الله تعالى الجمادات والأحياء عليها. كدوران الأرض حول الشمس، وإنزال الغيث، وتوسع الكون في الجمادات. وكغريزة التكاثر، والمأكل والمشرب، والنوم، والصحة والمرض، والتدين في الأحياء من البشر وأمثالهم. وهذا النوع يسمى كذلك بـ (فقه الواقع) الكوني.

- أمر الله تعالى الأحياء، ومنهم الإنس والجن بطاعته وعبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾{الذاريات:٥٦}. ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى﴾{المائدة:١١٧}.﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ {البقرة:٢١}. وهذا الأمر، هو

الأمر الشرعي، الذي تعبد الله به عباده، فأرسل لغايته الرسل ، وأنزل الشرائع والكتب، وهو ما يسمى بـ (فقه الشرع).

إذن هما سُنّتان حاكمتان: السنة الكونية(فقه الواقع) المتعلق بما نتج عن أمر الله من إيجاد الخلق ابتداءً، ثم تدبير شؤونهم ومعاشهم، وما يحدث لهم من حوادث. والسنة الشرعية (فقه الشرع) المتعلق بأمر الله لعباده بالطاعة والعبادة، وهي أوامره المتعلقة بالفعل والترك. فلكي يحيى الإنسان الحياة الطيبة عليه أن يعلم هاتين السنتين، ثم يعمل بمقتضاهما. ومن فرط في معرفة أحداهما أو تجاهلها أو ظن في نفسه معرفتها فقد ضل سواء السبيل، ومن ضل سواء السبيل انقلبت حياته: من نعمة إلى نقمة، ومن أمن إلى خوف، ومن سعة في الرزق إلى جوع وفقر، ومن خير إلى شر.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ {طه:١٢٤}. وهذا الأمر مبين في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ {الأحزاب:٧٠-٧١}. فالقول السديد (الصادق) بحاجة إلى سداد في معرفة الواقع، ولكي نحصل على الثمرات الواردة في الآية الكريمة، لا بد من اجتماع أمرين اثنين:

- معرفة الخلق والأمر، أي: الواقع والشرع.
- التقوى التي هي مقتضى تلك المعرفة.

وهاتان السنتان الحاكمتان (الخلق والأمر) مهمتان ومطلوبتان لإصدار الأحكام ومن ثم الأعمال، وخاصة لأهل العلم المفتين والقضاة والرعاة الحاكمين.

قال ابن القيم تحت عنوان: (تمكن الحاكم والمفتي بنوعين من الفهم):

(ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم: إحداهما: فهم الواقع والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر. فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً. فالعالم: من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله، كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دبر إلى معرفة براءته وصدقه. وكما توصل سليمان صلى الله عليه وسلم بقوله: ائتوني بالسكين حتى أشق الولد بينكما، إلى معرفة عين الأم)[1] أهـ.

ولهذا قال رسول الله (ﷺ): **(القضاة ثلاثة: واحد في الجنة واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به. ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار. ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار)** [2].

ويقول (ابن القيم) محمد بن أيوب الزرعي، محذرا من تبعات التقصير في معرفة الواقع والشريعة:

(... هذا موضع مزلة أقدام، وهو مقام ضنك ومعترك صعب. فَرّط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق وجرؤوا أهل الفجور على الفساد وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بها مصالح العباد، وسدوا على نفوسهم طرقاً عديدة من طرق معرفة الحق من الباطل، بل عطلوها مع علمهم قطعاً وعلم غيرهم بأنها أدلة حق ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع. والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة الشريعة، وتقصير في معرفة الواقع، وتنزيل أحدهما على الآخر. فلما رأى ولاة الأمر ذلك وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة، أحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها أمر العالم، فتولد من تقصير أولئك في الشريعة وإحداث ما أحدثوه من أوضاع سياستهم، شر طويل وفساد عريض، وتفاقم الأمر وتعذر استدراكه.

وأفرطت طائفة أخرى فسوغت منه ما ينافى حكم الله ورسوله، وكلا الطائفتين أتيت من تقصيرها في معرفة ما بعث الله به

---

(١) (إعلام الموقعين) (١/٨٧- ٨٨).

(٢) رواه أبو داود، وابن ماجة والترمذي وصححه الشيخ الألباني.

رسوله فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي به قامت السماوات والأرض، فإذا ظهرت أمارات العدل وتبين وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وعلاماته في شيء، ونفي غيرها من الطرق التي هي مثلها أو أقوى منها، بل بين ما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل، وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط، فهي من الدين، لا يقال إنها مخالفة له، فلا تقول: إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع بل موافقة لما جاء به بل هي جزء من أجزائه. ونحن نسميها سياسة تبعا لمصطلحكم وإنما هي شرع حق)[1].

مصادر معرفة الواقع:

بما أن فقه الواقع معتبر لصحة الاعتقاد والتصورات وما يترتب على ذلك من صدق في الأقوال وصواب في الأعمال. فمن الواجب أخذ هذا الفقه من مصادره الصادقة المعتبرة، وأول هذه المصادر صدقاً الوحي بشقيه القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والسنة النبوية الصحيحة، وهما منهج للحياة البشرية الكريمة الصالحة، سواء كان ذلك من جهة علاقة العبد بخالقه، أم علاقة العبد بالعبد، أم علاقته بالكون، وعلى الرغم من ذلك فقد ترك الوحي أموراً من الواقع، وخاصة فيما يتعلق بعلاقة العبد بالعبد أو علاقته بالكون لتقدير الناس للوصول إلى معرفة حقائقها. فقد أكد القرآن على ضرورة التحري عن أخبار الفساق قبل ردها أو الأخذ بها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ {الحجرات:٦}.

وهذا التحري له طرقه ومصادره وأساليبه، وهو متطور مع الزمن لتطور أساليب الدجل والعمل الجاسوسي المنظم، فَتَرَكَ أمره للناس ولأفهامهم.

---

(١) (بدائع الفوائد) (٣/٦٧٤-٦٧٦)، ط/١، مكة المكرمة، دار الباز للنشر.

وفي علاقة العبد بالكون، فقد أرشدنا الله تعالى إلى أدب آخر في التعامل مع الوحي كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾{البقرة:١٨٩}.

فقد جاء قوم وسألوا الرسول (ﷺ) عن الأهلّة، فأجابهم الوحي بعلاقتها بالمواقيت والحج فقط، ثم ردّ عليهم قصدهم الذي أرادوا منه معرفة ما وراء ذلك، كطبيعة القمر وخصائصه ومكوناته من خلال الوحي، فقال: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ بل أمرهم لمعرفة حقيقة القمر الكونية بأن يأتوا البيوت من أبوابها، أي: أهل العلم المتخصصين، قال تعالى: ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾، لأن القرآن الكريم لم يتطرق إلى بيان كل الحقائق العلمية والسنن الكونية عن الكون إن كان فيه ما يدل على ذلك، ولو قصد ذلك لاحتاج الأمر إلى أضعاف أضعاف عدد آيات القرآن الكريم، فَرَدّ أمر معرفة ذلك إلى أهل والعلم والاختصاص:﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴾. ولذا قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ {فصلت:٥٣}. أي بالعلم بالبحث والتنقيب.

وقد يحتج بعضهم، بقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾{الأنعام:٣٨}. لفهم الواقع كله من خلال الوحي: القرآن والسنة فقط. وهذه الآية لا تدل على مرادهم، فالمقصود بالكتاب: هو أم الكتاب، أو اللوح المحفوظ. قال الطبري في تفسيرها بسنده عن ابن عباس: (ما تركنا شيئاً إلا قد كتبناه في أم الكتاب). وقال القرطبي: (أي في اللوح المحفوظ). ومما يدل على صحة هذا التأويل قول الرسول (ﷺ): (إن أول ما خلق الله القلم، فقال

له: اكتب. قال: ما أكتب قال: اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد)[1] .

ومن الأدلة على أن معرفة العبد لواقع هذا الكون، ليست محصورة بالوحي فقط، قول رسول الله (ﷺ): (أنتم أعلم بأمر دنياكم)[2].

ونص الحديث بتمامه:

(أن النبي (ﷺ) مرّ بقوم يلقحون فقال: لو لم تفعلوا لصلح قال: فخرج شيصاً فمر بهم فقال: ما لنخلكم قالوا: قلت كذا وكذا قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم)[3].

مع أن القرآن الكريم قد أشار إلى إحدى وظائف الرياح: (التلقيح)، أي تلقيح أزهار النباتات، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ {الحجر:٢٢}. لكن هذه السنة الكونية لا تصلح لتأبير النخل، وعُلم ذلك من الخبرة: الدراسة والتجربة.

وعليه فإن الاعتماد على الوحي في معرفة ما يتعلق بقوانين الفيزياء أو الكيمياء أو الرياضيات أو صناعة المتفجرات والقنابل النووية والكهرباء وغير ذلك يعتبر من الجهل الذي لا يقول به عاقل، ويدخل في ذلك كذلك أخبار الفرق والأحزاب والمذاهب وما اتفقت عليه، وما اختلفت فيه وأخبار الدول والملوك والأمراء والرؤساء والساسة والأفراد.

ومن المؤسف أن يحمل البعض قول الرسول (ﷺ): (أنتم أعلم بأمر دنياكم) على فراسة المؤمن، ففيه تعطيل واضح، بل قتل لمادة البحث العلمي لاكتشاف أسرار هذا الكون!!!

---

(١) تخريج السيوطي : (ت) عن عبادة بن الصامت. تحقيق الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: (٢٠١٧) في (صحيح الجامع).

(٢) تخريج السيوطي: (م) عن أنس وعائشة. تحقيق الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: (١٤٨٨) في (صحيح الجامع).

(١) مسلم برقم (٢٣٦٣).

أمور مهمة لفهم الواقع:

(أ) أصناف الناس في معرفة الحقيقة:

يختلف الناس في معرفة الحقيقة وفهم الواقع على أربعة أصناف:

الصنف الأول: من يريد معرفة الحقيقة عن طريق النظر في الشكل الخارجي فقط، كأن يمتدح شخصا ما لطول لحيته، أو لعمامته، أو للباسه المتواضع، وإن كانت هذه إحدى إشارات الصلاح، إلا أنها لا تكفي لمعرفة واقع الشخص معرفة يقينية. وهذا الصنف من أضل الناس.

الصنف الثاني: من يريد معرفة الحقيقة عن طريق الأقوال والتصريحات الدعائية فقط، وإن كانت هذه إحدى إشارات الصلاح، إلا أنها لا تكفي لمعرفة واقع الشخص معرفة يقينية.

وهذا الصنف مُعرضٌ للتضليل، وذلك لإمكانية وقوع الكذب، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ {البقرة:٨}. وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ {البقرة:٢٠٤-٢٠٥}.

الصنف الثالث: من يريد معرفة الحقيقة عن طريق رؤية الأفعال فقط، وإن كانت هذه إحدى إشارات الصلاح القوية، إلا أنها لا تكفي لمعرفة واقع الشخص معرفة يقينية، وهذا الصنف مُعرض للتضليل كذلك، من صورتين:

- صورة المنافق الذي يشهد الجمعة والجماعات، فلو نظرت إلى ظاهر عمله فقط، خُدعت به.
- صورة المرائي ولو بأفضل الأعمال والطاعات، كقراءة القرآن والجهاد والصدقة، فهذا النوع يخالف ظاهره باطنه. والحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ، الذي يخبرنا فيه النبي (ﷺ) عن أول ثلاثة تسعّر فيهم النار يوم القيامة أدل دليل على صحة ذلك. وقول النبي (ﷺ): {إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن

كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه}. (رواه البخاري ومسلم وغيرهما).

الصنف الرابع: من يريد معرفة الحقيقة عن طريق قراءة الأفكار والعقائد، فهذا الصنف لا يضل ولا يزل بإذن الله، ولا يلدغ من جحر واحد مرتين. وهذا الأسلوب هو الأدق والأصوب، ولا يستطيعه أو يُطيقه كثير من الناس.

وأصحاب هذا الصنف هم الفقهاء في الواقع، ينذرون أقوامهم ويأخذون بأيديهم بعيداً عن مواطن الزلل والخديعة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ {النساء:٨٣}.

ونحن في أمسّ الحاجة إلى هذا الصنف من الناس وتكثيره، في زمن السنوات الخدّاعات التي أخبر عنها النبي (ﷺ): (ثم يأتي على الناس سنوات خداعات، يُصدّقُ فيها الكاذب، ويُكذّبُ فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويُخوّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة) [1].

كي يقوم أولئك بتصحيح الصورة، وإحقاق الحق، وتصويب الأوضاع، فكيف الحال بأمة ترى الصادق كاذباً والكاذب صادقاً ؟ وكيف بأمة ترى الأمين خائناً والخائن أميناً؟!

أمثلة من الخدع التي وقعنا في شَرَكِها:

١-تظاهر مصطفى كمال أتاتورك اليهودي بالإسلام، حتى تمكن من القضاء على الدولة العثمانية، وسلخ تركيا علانية عن الإسلام[2].

فلو أن المسلمين لم يأمنوا جانبه، واحترسوا منه لاحتمال مخادعته للمسلمين بصفته يهودياً سابقاً لما لدغوا من جحره، فالغاية عند اليهود تبرر الوسيلة. وعلى رأس هذه الوسائل الكذب المبرمج والخديعة.

---

(١) (صحيح ابن ماجة) ، رقم: (٤٠٣٦) عن أبي هريرة .

(١) (الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام)، عبد الله التل، (ص ٧٥، ٨٥، ٩٠).

٢-التحالف القديم بين الإسلاميين والاشتراكيين بقيادة لينين في روسيا النصرانية قبل الثورة البلشفية الشيوعية[١]، وبعد نجاح الثورة تم الهجوم على الجمهوريات الإسلامية المستقلة. فلو أنهم لم يأمنوا جانبه، واحترسوا منه لاحتمال مخادعته للمسلمين بصفته شيوعياً لما لدغوا من جحره، فالغاية عند الشيوعية تبرر الوسيلة، وعلى رأس هذه الوسائل الكذب المبرمج والخديعة.

٣-قيام الرئيس جمال عبد الناصر الاشتراكي بالانضمام إلى الإخوان المسلمين حتى تمكن من استلام السلطة ليقضي على الحركة الإسلامية،(فقد قرر مجلس قيادة الثورة في جلسته المنعقدة في ١٩٥٤/١/١٢حَلّ جماعة الإخوان المسلمين، واتهمهم بقلب نظام الحكم، والاتصال بالإنجليز) [٢].

يقول حسين محمد حمودة أحد الضباط الأحرار في جماعة الإخوان المسلمين بهذا الشأن: (كانت الخلية الرئيسية في تنظيم الإخوان المسلمين داخل القوات المسلحة مكونة من سبعة ضباط هم: عبد المنعم عبد الرءوف وجمال عبد الناصر وكمال الدين حسن وسعد توفيق وخالد محي الدين وحسين حمودة وصلاح خليفة).

وقال: (التقينا نحن السبعة وحضر اجتماعنا الصاغ محمود لبيب وكيل جماعة الإخوان المسلمين، وتكررت اجتماعاتنا مرة كل أسبوع في منزل عبد المنعم عبد الرءوف بالسيدة زينب، وفي منزل جمال عبد الناصر... وتكررت اجتماعاتنا الأسبوعية ولم تنقطع أبدا طيلة الفترة (١٩٤٤- ١٩٤٨) أربع سنوات وأربعة اشهر)[٣].

فإن كان الإخوان المسلمون يعلمون أن جمال عبد الناصر كان عضواً في خلية شيوعية قبل الثورة اسمها الحركة

---

(٢) طارق حجي في كتابه ((أفكار ماركسية في الميزان))، ص ٦٥، دار المعارف.

(٣) جريدة الجمهورية، ١٥ يناير ١٩٥٤، الصفحة الرئيسية.

(١) (أسرار حركة الضباط الأحرار) (ص٣٣).

الديموقراطية للتحرر الوطني(حدتو)[1] فتلك مصيبة، وإن كانوا لا يعلمون فالمصيبة أعظم. فلو أنهم لم يأمنوا جانبه، واحترسوا منه لاحتمال مخادعته للمسلمين بصفته شيوعياً، أو شيوعياً سابقاً على أقل تقدير لما لدغوا من جحره، فالغاية عند الشيوعية تبرر الوسيلة، وعلى رأس الوسائل الكذب المبرمج والخديعة.

٤- تظاهر ميشيل يوسف عفلق اليهودي بالنصرانية، ثم أُعْلن عن إسلامه بعد وفاته كذباً وزوراً[2]. وأمِنَه من أمِنَه من غثاء المسلمين، وساروا على نهجه الاشتراكي، وصدق بعض الغثاء قصة إسلامه الموهومة. فلو أنهم لم يأمنوا جانبه، واحترسوا منه لاحتمال مخادعته للمسلمين بصفته يهودياً أو شيوعياً، أو شيوعياً سابقاً، أو اشتراكياً على أقل تقدير ما لدغوا من جحره، فالغاية عند اليهودية والشيوعية تبرر الوسيلة، وعلى رأس هذه الوسائل الكذب المبرمج والخديعة.

٥- بعد نجاح الثورة الشيعية الإمامية الخمينية في إيران، أعلن عن قيام جمهورية إيران الإسلامية، قام عامة المسلمين بتهنئة بعضهم بعضاً، وظنوا بهذه الثورة خيراً، علماً أن الخميني يعتقد بالخط الثوري الماركسي الشيوعي. . فلو أنهم لم يأمنوا جانبه، واحترسوا منه لاحتمال مخادعته للمسلمين بصفته شيعياً إمامياً، أو شيوعياً، أو اشتراكياً على أقل تقدير ما لدغوا من جحره، فالغاية عند الشيعة والشيوعية تبرر الوسيلة، وعلى رأس هذه الوسائل الكذب المبرمج (التقية)، والخديعة.

٦- والدجال وهو أسوأ خدعة منتظرة، وزمان خروجه قد يكون قد اقترب، فمن خُدِعَ بمن سبق ذكرهم، فكيف سينجو من فتنته؟ مع العلم أن علم تسخير الشعوب الذي تقوم عليه الاشتراكية اليهودية يزداد تطوراً مع الزمن.

---

(٢) المرجع السابق، (ص١٥٧)، وفيه قيام عبد الناصر بنقض الاتفاق بينه وبين الإخوان على الحكم بكتاب الله، وفتكه بالحركة الإسلامية (ص١٦١-١٦٧)، وراجع كتاب: (فشل حركة يوليو بعدائها للتيار الإسلامي) للدكتور جابر الحاج (ص٣٤).

(٣) نقل خبر إسلامه وسائل الإعلام في حينه. وقد ذكر يهودية أبيه يوسف عفلق، الذي اعتنق النصرانية، عن الموقع:
www.moqatel.com/mokatel/DataBehoth/Siasia2/HezbBath/Mokatel3-1-2.htm

(ب) **الكذب**:

الكذب هو عكس حقيقة الخلق، أو عكس الواقع، وهو من أقبح الأخلاق الذميمة، ومصيبة المصائب، وأشنعه ما كان عن قصد. قال تعالى:

- ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ {الاسراء:٣٦}.
- ﴿ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ {النور:٧}.
- ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ {آل عمران:٦١}.
- ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ {آل عمران:٩٥}.

وجاء في الأحاديث:

- (ثم إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقا. وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا) [متفق عليه].
- (ثم أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) [متفق عليه].
- (إن من أعظم الفرى، أن يدعيَ الرجل إلى غير أبيه، أو يري عينه ما لم تره، أو يقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل). [رواه البخاري].

أنواع الكذب:

يقسم الكذب من جهة قائله إلى قسمين هما:

١. **الكذب المؤسسي**: هو الكذب المنطلق من عقيدة، أو مبدأ، أو دين، مثل الكذب في الديانة اليهودية المحرفة التي تجيز الكذب لأتباعها في تعاملهم مع غيرهم، سواء كان ذلك لجلب منفعة أو درء مفسدة، بل هو عندهم قربى يتقربون بها إلى الله بزعمهم. ومثلها العقيدة الإمامية الباطنية التي تتخذ الكذب والتّقيّة ديناً، بل فيها ـ على حد زعمهم ـ تسعة أعشار الدين.

وأما الكذب في المبدأ الاشتراكي الصهيوني فهو الركيزة الكبرى عندهم. فأصحاب هذا النوع من الكذب يعاملون بالحذر الشديد، وتُحْمَل دعواهم على مبدأ المواراة والمداهنة واللف والدوران، ومن جهة هؤلاء يكون الخوف والاحتراس لباطنيتهم ولإفسادهم. فلو قالوا: (نحن مع السلام أو نحترم الحريات الدينية أو أننا ننبذ الإرهاب) وأمثال ذلك من الكلام الحسن، فلا يجب علينا قبول زعمهم وتصديقهم، بل علينا حمل هذه التصريحات على المراوغة والخديعة، وإلا أصبنا بنار تضليلاتهم السياسية وغير السياسية. فصاحب هذا النوع من الكذب تراه منشرح الصدر راضٍ عن فعله، بل يتقرب إلى الله تعالى بكذبه. ولا يجوز حمل هذا النوع من الكذب على أنه شخصي، ككذب زعماء اليهود والاشتراكيين والشيعة الإمامية، ولو حملنا هذا الكذب المؤسسي على أنه شخصي لضللنا، فكيف بنا إذا صَدّقناهم؟

٢. **الكذب الشخصي**: وهذا الكذب يصدر عن شخص يدين بدين يُحَرّم ممارسة الكذب بين أتباعه، ويحرم على أتباعه ممارسته على الآخرين[1]. ومن أمثلته، المسلم الذي يقع في جريمة الكذب، فالعاقل يُوَجّه الانتقاد إلى شخصه هو، لا إلى الدين الإسلامي الذي ينتمي إليه، ومن فعل ذلك فقد خلط الأمور وضلل الناس وأساء إلى الإسلام، وعلى هذا يقاس كل دين يحرم الكذب على أتباعه، كالنصرانية في الإنجيل. فصاحب هذا النوع من الكذب تراه يشعر بالذنب فيستغفر الله ويتوب إليه. إذن من الضلال البَيّنِ حَمْلُ الكذب المؤسسي على الكذب الشخصي، وبالعكس.

---

(١) إلا في ظروف معينة مقيدة استثنائية.

وعليه فمن ثبت كَذِبُه المؤسسي وجب ترك روايته والتحذير من مقولاته، خاصة إذا اتخذ من الكذب وسيلة لتحقيق أهدافه، كما هو الحال في اليهودية والمبدأ الاشتراكي والإمامية الباطنية.

وقد ذكر ابن تيمية عدداً من الطرق التي يُعلم بها كذب المنقول، منها:

(أن يَرْوي-أي الراوي-خلاف ما عُلم بالتواتر والاستفاضة، مثل: أن نعلم أن مسيلمة الكذاب ادعى النبوة، واتبعه طوائف كثيرة من بني حنيفة فكانوا مرتدين لإيمانهم بهذا المتنبئ الكذاب. وأن أبا لؤلؤة قاتل عمر، كان مجوسياً كافراً. وأن أبا الهرمزان كان مجوسياً أسلم. وأن أبا بكر كان يصلي بالناس مدة مرض الرسول (ﷺ) ويخلفه بالإمامة بالناس لمرضه. وأن أبا بكر وعمر دفن في حجرة عائشة مع (ﷺ).

ومثل ما يعلم من غزوات النبي (ﷺ)التي كان فيها القتال، كبدر وأحُد ثم الخندق ثم خيبر ثم فتح مكة ثم غزوة الطائف. والتي لم يكن فيها قتال كغزوة تبوك وغيرها. وما نزل من القرآن في الغزوات، كنزول الأنفال بسبب بدر، ونزول آخر آل عمران بسبب أحد، ونزول أولها بسبب نصارى نجران، ونزول سورة الحشر بسبب بني النضير، ونزول الأحزاب بسبب الخندق، ونزول سورة الفتح بسبب صلح الحديبية، ونزول براءة بسبب غزوة تبوك، وغيرها و أمثال ذلك.

فإذا روى في الغزوات وما يتعلق بها ما يعلم أنه خلاف الواقع عُلِمَ أنه كذب. مثل ما يروي هذا الرافضي، وأمثاله من الرافضة وغيرهم من الأكاذيب الباطلة الظاهرة في الغزوات كما تقدم التنبيه عليه. ومثل أن يعلم نزول القرآن في أي وقت كان. كما يعلم أن سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة و الأنفال وبراءة نزلت بعد الهجرة في المدينة. وأن الأنعام والأعراف ويونس وهوداً ويوسف والكهف وطه ومريم واقتربت الساعة وهل أتى على الإنسان وغير ذلك نزلت قبل الهجرة بمكة. وأن المعراج كان بمكة. وأن الصُفّة كانت بالمدينة. وأن أهل الصفة كانوا من جملة الصحابة الذين لم يقاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكونوا ناساً معينين بل كانت الصُفّةُ منزلاً ينزل بها من لا أهل له من الغرباء القادمين وممن دخل فيهم سعد بن أبي وقاص

وأبو هريرة وغيرهما من صالحي المؤمنين وكالعرنيين الذين ارتدوا عن الإسلام [1].

قانون عاملي الاقتناع هما التكرار والزمن، أو الغزارة والزمن:

وهذا القانون أهمها وأخطرها، وبه انتشرت أفكار حزب التحرير. فبالتكرار والزمن عبد غير الله، فأصبح عزير ابن الله عند اليهود، والمسيح ابن الله عند النصارى، وبهذا القانون أصبحت الأوثان والأصنام، والشمس، والقمر، والبقر آلهة عند الغثاء من الناس.

وبهذا القانون، انتشرت البدع والخرافات في الدين. و بالتكرار والزمن كذلك، عاد الناس إلى التوحيد ونبذ البدع والخرافات مرة أخرى. ويهمنا أن نوضح للقارىء الكريم علاقة هذا القانون في عصرنا الراهن بمصدر الشر على وجه الأرض، فاليهود اتخذوا الكذب وسيلة كبرى لتحقيق غاياتهم.

السنوات الخداعة:

بما أن الكذب هو عكس للواقع وللحقيقة، تقوم عليه دعوات هدامة[2] تقصد الفساد والإفساد في المجتمعات الإنسانية من خلال إثارة مجموعة من الأفكار والتصورات والمفاهيم الكاذبة. وبهذه التصورات المزعومة يعتقد الناس ـ أو فقل إن شئت الغثاء من الناس ـ بمجموعة من المصالح والمفاسد الموهومة. فتصبح هذه المصالح والمفاسد هي الحاكمة على تصرفات من اعتقد بها باعتبارها الحقّ الذي لا حق غيره، وما علموا أن هذه المصالح هي في الحقيقة مفاسد خالصة، بل هي خطة عدوهم فيهم، طالما ضَحّوا وتحالفوا مع أعدائهم ـ أمثال الاشتراكية والإمامية الباطنية الحاقدة-من أجل تحقيقها. وما علموا كذلك أن المفاسد التي تصوروها، إنما هي مصالح، أو أنها تصنف ضمن باب (درء المفسدة الكبرى بالمفسدة الصغرى).

ومن أخطر الأساليب المُطَبّقة في هذا الباب اتهام الصادق بالكذب، والأمين بالخيانه، وبالعكس. ففي الوقت الذي يُخدع فيه الناس

---

(١)(منهاج السنة النبوية) (٧/٤٣٧- ٤٣٨).

(١) مثل: اليهودية والاشتراكية والشيعة الإمامية وحزب التحرير.

بالكَذَبَةِ الخَوَنة من الاشتراكيين الشيوعيين، والشيعة الإمامية، تجدهم يتهمون الصادق والأمين من الإسلاميين والوطنيين العادلين، فيعيش الناس في بيئة سياسية واجتماعية موبوءة، خداعة كما وصفها الرسول (ﷺ) في قوله: (إن بين يدي الساعة سنين خداعة، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟ قيل: المرء التافه يتكلم في أمر العامة)[1].

وبسبب هذه الحالة التي تصيب الناس، يصبح الناس (غثاء كغثاء السيل). فتجدهم ينطلقون مع هذا التيار الفكري المخادع، إلى الأهداف التي حددها لهم مسبقا، أو حيّدها، وهم لا يشعرون بخطته فيهم، ولا بوجوده أصلاً. فتجدهم يقاتلون إخوانهم، كقتالهم لبعض الدول الإسلامية التي لا زالت من خير الدول في تطبيق الإسلام، ويقاتلون أصدقاءهم، كبعض الدول الغربية غير المحاربة لنا في الدين، بل تجدهم ينصرون أعداءهم من الاشتراكيين اليهود، والإمامية الباطنية تحت باب التقاء المصالح في صراعنا مع الصليبية أو اليهود. فانطبق علينا قول الرسول الله (ﷺ): (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها). فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن). فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: (حب الدنيا وكراهية الموت)[2].

قانون إماتة الاحتمالات الحية وإحياء الاحتمالات الميتة:

يقوم هذا القانون على إثارة الغثاء ضد أمر موهوم لا وجود له، أو تضخيم أحد الأخطار المتوقعة قليلة الأثر. وفي المقابل يتم إماتة الخطر الأول والأعظم بعدم الإشارة إليه بالمرة، أو التقليل من خطره.

فقد عانى الناس ولا زالوا، من هذا القانون القاتل، إذ به يتوجه الناس لقتال السراب، ويتركون عدوهم الأكبر يعيث في الأرض الفساد. فقد قتلت الشيوعية (الشرق) من المسلمين، حوالي (٢٠٠) مليون

---

(٢) (صحيح)، (السلسلة الصحيحة). برقم (٢٢٥٣).

(١) (السلسلة الصحيحة) رقم (٦٤٧)، قال الشيخ الألباني: صحيح.

مسلم، في غضون (٧٠) سنة فقط، في حين لم تقتل الصليبية (الغرب) من المسلمين ماضياً وحاضراً على مر التاريخ الإسلامي، أكثر من (٥) ملايين مسلم، منهم مليون مسلم في الجزائر، وهدمت الشيوعية (الشرق) من مساجد المسلمين مئات الآلاف، في حين يزداد عددها في الغرب، وأغلقت الشيوعية (الشرق) مئات الآلاف من دور القرآن والمدارس الإسلامية، في حين يزداد عددها في الغرب.

وألغت الشيوعية (الشرق) اللغة العربية لغة القرآن الكريم، وانتشرت في الغرب. ثم بعد كل هذا مات الخطر الشيوعي (الشرق). مع العلم أنه يوجد حالياً في عام (١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م)، حوالي مائة حزب يساري منتشرة في الدول العربية[١]. وليس المقصود أنها غير مؤثرة في واقعنا، بل هي على العكس تماماً، بل منها أنظمة قائمة على سدة الحكم. وبهذا فقد تضخم الخطر الغربي وتضخم لدى المسلمين!!!

ولم نلتفت إلى تحذير النبي (ﷺ) المتكرر: أن الخطر القادم من الشرق. ألا يدل ذلك أننا فعلاً غثاء كغثاء السيل، فقد وجهنا سيل الدعاية الفكري الجارف لأن نوجه كل عدائنا إلى الغرب ونترك الشرق، فاستجبنا لندائه.

ومن الصور التي ساعدت على قلب الحقائق وانعكاس فهم الواقع لدى المسلمين، أن أصحاب الأقلام والتحليل السياسي المتأثرين بدعاية حزب التحرير، المدافعة عن الماركسية الاشتراكية بطريقة مدروسة، يصفون دائماً وبكل إصرار، الجرائم التي ارتكبتها الاشتراكية في طول بلاد الإسلام وعرضها، بأنها من صنع الغرب، وبمخططات أمريكية على وجه الخصوص، ويتهمون حكام هذه الدول الاشتراكية التي ذاق فيها المسلمون أقسى أنواع العذاب والقتل والتشريد والجوع والفقر، بالعمالة لأمريكا أو لبريطانيا. كجرائم النظم الاشتراكية، في مصر والعراق وسوريا وليبيا واليمن، والجزائر، والصومال، وإثيوبيا واندونيسيا وأفغانستان وغيرها من الدول، بل

---

(١) (الأحزاب السياسية في العالم العربي)، إصدار مركز القدس للدراسات السياسية، (ص١٥٠-٢٠٠). وهو عبارة عن توثيق لفعاليات المؤتمر الذي عقد في عمّان ١٢-١٣ حزيران/٢٠٠٤.

ذهبت هذه الأقلام إلى صرف النظر عن جرائم الاتحاد السوفيتي نفسه، باعتباره صاحب النظرية الاشتراكية الأمريكية!!!

وكذلك جرائم الاشتراكية في البوسنة والهرسك، وكوسوفا، بل ذهبت هذه الأقلام إلى ما هو أبعد من ذلك، فاعتبرت تحرك حلف شمال الأطلسي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ضد الاشتراكيين الصرب، كان لتصفية الإسلام في دول البلقان، وهكذا يضلل الغثاء من الناس حين يصدقون هذه الأكاذيب والأكاذيب التي ليس لها حدود.

ومن الصور التي ساعدت على قلب الحقائق وانعكاس فهم الواقع لدى المسلمين كذلك، وصفهم لكل ما تقوم به أمريكا من تضييق وفرض عقوبات و حرب، تقصدها ضد الدول الاشتراكية العربية وغير العربية، إنما هو موجه ضد الإسلام والمسلمين، مثل حربها ضد نظام البعث العربي الاشتراكي العراقي، وتضييقها على النظام الاشتراكي في سورية، ومراقبتها الحثيثة والموجهة ضد إيران، والعقوبات على ليبيا والسودان. وجرائم الاشتراكية في البوسنة والهرسك، وكوسوفا كما مر من قريب.

وقد انتقل هذا الانحراف الأول المتمثل بالتضليل الإعلامي، إلى قلب الحقائق وانعكاس فهم الواقع لدى كثير من المسلمين، بفعل قانون التكرار والزمن، ومنهم إخوة لنا في العقيدة والمنهج الصحيح، القائم على الكتاب والسنة قولاً وعملاً، مما أدى إلى شق الصف الواحد الذي لازال متماسكا قويا إلى وقت ليس ببعيد، فأدى بهؤلاء الذين وقعوا في هذا التضليل الإعلامي ممن يرون الواقع بآذانهم لا بأعينهم، إلى انحراف ثان، وهو: تكفير بعضهم للأنظمة الإسلامية كلها، وخاصة الدول الإسلامية التي تعادي الاشتراكية اليهودية، وعلى رأسها المملكة العربية السعودية، ثم الأردن.

وهذا الانحراف أدى إلى انحراف ثالث: وهو رمي كبار علماء المسلمين، ممن لا يرون كفر هذه الأنظمة التي تعادي الاشتراكية، من باب: من لم يكفر الكافر - على حد زعمهم - فهو كافر، سواء كان هؤلاء العلماء يعملون داخل حكومات تلك الأنظمة، أو خارجها، وعلى رأس هؤلاء العلماء هيئة كبار العلماء في السعودية، وعلماء الأزهر الشريف في مصر، ومشيخة الشام، وأولهم الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله، فقد رموا كل هؤلاء العلماء وأمثالهم، بالخيانة ووصفوهم

بالإرجاء، والتخذيل أو بـ (أئمة القعدة)، أو التزلف للسلاطين، فأدى ذلك إلى انحراف رابع وهو: التشكيك في منهج هؤلاء العلماء لدى بعضهم، والتحذير منهم، فأدى إلى تناحر فئتين من مدرسة واحدة، تراشقا بالتهم والخيانة، بل وصل الأمر ببعضهم إلى رمي الآخر بالكفر، عياذاً بالله.

هذه الانحرافات المتتالية التي قد تصل في المستقبل، إلى حد الاحتراب بين أصحاب الفئة الواحدة، بل وصلت، لتدلنا على مدى خطورة التهاون بفقه السياسة الشرعية في الإسلام، فالعالم لا غنى له عن هذا الفقه، الذي لا تكون النجاة من الفتن، إلا بضبطه وتأصيله تأصيلاً علمياً دقيقاً.

فقد أدت هذه الفتن إلى التطاول على خير الناس، إذ بمثلها أو بأسلوبها المشابه، البعيد عن التأصيل العلمي، قتل عثمان بن عفان ﷺ، حتى وصل الكره له إلى حد التذمر من حكمه ودعاء الله تعالى لتغيير حكمه.

فقد نقل لنا ابن كثير في قصة قتله، أن المرأة كانت تجيء في زمان عثمان إلى بيت المال فتحمل حملها من الخيرات من بيت المال، وتقول: (اللهم بدل اللهم غير)[1].

وهذه المرأة وأمثالها هي من المسلمين، الذين خدعوا بالدعاية السبئية الباطنية، ليست عدوة لله تعالى عن قصد أبداً، فكيف يكون أمر الدعاية المغرض مع من هم أدنى شأناً ومنزلة من عثمان ﷺ؟

تقول البروتوكولات:

(ولضمان الرأي العام يجب أولاً: أن نحيره كل الحيرة بتغييرات من جميع النواحي لكل أساليب الآراء المتناقضة حتى يضيع الأمميون (غير اليهود) في متاهتهم. وعندئذ سيفهمون أن خير ما يسلكون من طرق هو أن لا يكون لهم رأي في السياسية: هذه المسائل لا يقصد منها أن يدركها الشعب، بل يجب أن تظل من مسائل القادة الموجهين فحسب. وهذا هو السر الأول. والسر الثاني[2] وهو

---

(١) (البداية والنهاية)، (٧ / ١٩٤).

(٢) هذان السران من أخطر الأسرار السياسية، وعليهما تبنى النتائج الخطيرة المشار إلى بعضها في الفقرة التالية لهما (من كلام المترجم).

ضروري لحكومتنا الناجحة ـ أن تتضاعف وتتضخم الأخطاء والعادات والعواطف والقوانين العرفية في البلاد، حتى لا يستطيع إنسان أن يفكر بوضوح في ظلامها المطبق، وعندئذ يتعطل فهم الناس بعضهم بعضاً)(٥/٨١-٨٢).

(من الخطير جداً في سياستنا أن تتذكروا التفصيل المذكور آنفاً، فإنه سيكون عوناً كبيراً لنا حينما تناقش مثل هذه المسائل: توزيع السلطة،وحرية الكلام، وحرية الصحافة والعقيدة، وحقوق تكوين الهيئات، والمساواة في نظر القانون، وحرمة الممتلكات والمساكن، ومسألة فرض الضرائب (فكرة سرية فرض الضرائب) والقوة الرجعية للقوانين. كل المسائل المشابهة لذلك ذات طبيعة تجعل من غير المستحسن مناقشتها علناً أمام العامة. فحيثما تستلزم الأحوال ذكرها للرعاع يجب أن لا تحصى، ولكن يجب أن تنشر عنها بعض قرارات بغير مضي في التفصيل. ستعمل قرارات مختصة بمبادئ الحق المستحدث على حسب ما ترى. وأهمية الكتمان تكمن في حقيقة أن المبدأ الذي لا يذاع علناً يترك لنا حرية العمل، مع أن مبدأ كهذا إذا أعلن مرة واحدة يكون كأنه قد تقرر)(١٠/١٠٨-١٠٩).

(وسنصور الأخطاء التي ارتكبها الأمميون (غير اليهود) في إدارتهم بأفضح الألوان. وسنبدأ بإثارة شعور الازدراء نحو منهج الحكم السابق، حتى إن الأمم ستفضل حكومة السلام في جو العبودية على حقوق الحرية التي طالما مجدوها ... وسنوجه عناية خاصة إلى الأخطاء التاريخية للحكومات الأممية..)(١٤/١٥٦-١٥٨).

(وسنتقدم بدراسة مشكلات المستقبل بدلاً من الكلاسيكيات (Classics) وبدراسة التاريخ القديم الذي يشتمل على مثل (Examples) سيئة أكثر من اشتماله على مثل حسنة[1]، وسنطمس في

---

(١) أي: إن اليهود سيدرسون يومئذ للشباب صفحات التاريخ السود ليعرفوهم أن الشعوب عندما كانت محكومة بالنظم القديمة كانت حياتها سيئة ولا يدرسون لهم الفترات التي كانت الشعوب فيها سعيدة، لكي يقنعوهم بهذه الدراسة الكاذبة الزائفة أن النظام الجديد أفضل من القديم، وهذا ما يجري في روسيا الآن. وفي كل بلد عقب كل انقلاب سياسي(من كلام المترجم).

ذاكرة الإنسان العصور الماضية التي قد تكون شؤما علينا، ولا نترك إلا الحقائق التي ستظهر أخطاء الحكومات في ألوان قاتمة فاضحة) (١٦/١٨٧-١٨٨).

(غير أني سأسألكم توجيه عقولكم إلى أنه ستكون بين النشرات الهجومية نشرات نصدرها نحن لهذا الغرض، ولكنها لا تهاجم إلا النقط التي نعتزم تغييرها في سياستنا. ولن يصل طرف من خبر إلى المجتمع من غير أن يمر على إرادتنا. وهذا ما قد وصلنا إليه حتى في الوقت الحاضر كما هو واقع: فالأخبار تتسلمها وكالات (Agencies) قليلة[1] تتركز فيها الأخبار من كل أنحاء العالم. وحينما نصل إلى السلطة ستنضم هذه الوكالات جميعاً إلينا، ولن تنشر إلا ما نختار نحن التصريح به من الأخبار) (١٢/١٣٥-١٣٦).

(إن القيود التي سنفرضها على النشرات الخاصة، كما بينت، ستمكننا من أن نتأكد من الانتصار على أعدائنا. إذ لن تكون لديهم وسائل صحفية تحت تصرفهم يستطيعون حقيقة أن يعبروا بها تعبيراً كاملاً عن آرائهم، ولن نكون مضطرين ولو إلى عمل تنفيذ كامل لقضاياهم)(١٢/١٤٥).

وبهذا يتذكر العقلاء، قول الرسول (ﷺ): ((إن بين يدي الساعة سنين خداعة، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟ قال: المرء (الرجل) التافه يتكلم في أمر العامة)[2].

وساحة هذا القانون، (قانون إماتة الاحتمالات الحية وإحياء الاحتمالات الميتة): الشعوب الغافلة (الغثاء) التي تسعى الصهيونية والشيوعية الاشتراكية إلى فصل قوتها عن القوى الحاكمة، بل جعل قوة الشعب سنداً إلى جانبهم، وهذا الأسلوب من أمضى الأساليب المستخدمة لإسقاط الأنظمة، لأن تحالف القوى الحاكمة مع شعوبها يحول دون هدم اليهود للدول المستهدفة. وليت المسلمين يدركون ما

---

(١) أي الوكالات الإخبارية، ويلاحظ أن معظم هذه الوكالات تخضع لليهود الان، فمعظم ما كانوا يشتهونه قد تحقق لهم الآن (من كلام المترجم).

(٢) (صحيح)، (السلسلة الصحيحة)، للشيخ الألباني رحمه الله، رقم (٢٢٥٣) .

يحاك ضدهم، وما ينتظرهم من مصائب بعد سقوط الأنظمة المعتدلة الإسلامية والوطنية المتبقية في ديارنا-السعودية، والأردن وأخواتهما- التي طالما تعمل اليهودية للفصل بينها وبين شعوبها، وقد نجحت في تحقيق ذلك نجاحاً ساحقاً بأساليب شتى.

تقول البروتوكولات الصهيونية اليهودية:

(إننا نخشى تحالف القوة الحاكمة في الأمميين (غير اليهود) مع قوة الرعاع العمياء، غير أننا قد اتخذنا كل الاحتياطات لنمنع احتمال وقوع هذا الحادث. فقد أقمنا بين القوتين سداً قوامه الرعب الذي تحسه القوتان، كل من الأخرى. وهكذا تبقى قوة الشعب سنداً إلى جانبنا، وسنكون وحدنا قادتها، وسنوجهها لبلوغ أغراضنا) [1].

الأمثلة التطبيقية على هذا القانون:

هذه بعض الأمثلة الواقعية التي أظهرت مدى تأثرنا بقانون: (إماتة الاحتمالات الحية وإحياء الاحتمالات الميتة).

١. ألم تنتقد الشعوب الغافلة سياسة السعودية والأردن، في حين هدأت ونامت ضد سياسة الاشتراكية اليهودية في ليبيا الذي اقترح تسليم المسجد الأقصى لليهود وبناء مسجد آخر، واقترح إنشاء دولة إسرائيلية فلسطينية سماها (إسراطين)؟؟؟ علماً بأن القذافي ربته أمّه (زمردة) اليهودية؟؟؟

٢. ألم تنتقد الشعوب الغافلة وجود القوات الأمريكية في السعودية ودول الخليج، بينما لا ترى القوات الروسية والخبراء الروس بعشرات الآلاف في الدول الاشتراكية العربية، مثل سوريا والعراق واليمن الجنوبي سابقا، وإيران الفارسية؟؟؟

٣. ألم يَثُرْ العالم الإسلامي، بل العالم كله ضد تنفيذ قرار التحالف بإزالة النظام الاشتراكي في العراق، في حين سكت العالم إلى حد كبير أمام قرار الحرب ضد حركة طالبان؟؟؟!!!.

٤. ألم يتحرك العالم الإسلامي ومؤسساته الرسمية ليستنكر جريمة الاعتداء على القرآن الكريم-وهذا حسن-في حين هدأ الشارع الإسلامي ومؤسساته ضد قيام الاشتراكية في أوزبكستان-وهي

---

(١) البروتوكول: (٩).

إحدى الجمهوريات الإسلامية ذات الاستقلال الصوري عن الاتحاد السوفيتي السابق-في تلك الأثناء، بقتل (٧٥٠) مسلم؟ لماذا؟ لأن جريمة الاعتداء على القرآن الكريم كانت على يد أمريكا المعادية للاشتراكية اليهودية، علماً أن معاداة الاشتراكية هي في الحقيقة ضد المشروع الصهيوني الأكبر للسيطرة على العالم كله، لذا ثارت الشعوب. وأما الجريمة الثانية التي قتل فيها (٧٥٠) مسلما كانت على يد الاشتراكية ربيبة اليهودية، فتجد الشعوب قد تخدرت.

٥. ألم تثر الصحافة العالمية ضد معاملة الأمريكان للسجناء في سجن أبو غريب ولا زالت منذ أكثر من ثلاثة أشهر، في حين لم تسمع تلك الصحافة بجرائم الاشتراكية والمقابر الجماعية في نفس السجن في حكم البعث الاشتراكي، بل لم تعرف الصحافة، ولا نحن معها اسمه قبل ذلك، إلا قليلاً؟؟؟!!!

٦. أين حركة الغثاء ضد بناء جدار الفصل العنصري في فلسطين على يد اليهود؟؟؟!!!

٧. أين حركة الغثاء ضد المقابر الجماعية وهتك الأعراض المنظم من الاشتراكيين في البوسنة والهرسك وكوسوفو والعراق والصومال والاتحاد السوفيتي والصين؟؟؟

ألم تقتل الاشتراكية من المسلمين حوالي (٢٠٠) مليون مسلم، ولا زالت تقتل؟؟؟ ألم تهدم مئات الآلاف من المساجد ولا زالت تهدم؟؟؟ ألم تُلْغِ اللغة العربية في الصين والاتحاد السوفيتي، ولا زالت ملغاة في الصين؟؟؟

٨. ألم تنتقد الشعوب الغافلة سياسة السعودية ودول الخليج النفطية، في حين لم تتطرق إلى نقد سياسات الدول النفطية الاشتراكية، التي أحرقت النفط في آباره، أو أهدته إلى أسيادها اليساريين بأرخص الأثمان؟

٩. هل يسمع أحد بـ (قانون لينين) الذي يقضي بالعمل على إقامة دولة لليهود في فلسطين، وبناء على هذا القانون أقيمت دولة إسرائيل؟ بينما هل يجهل أحد (وعد بلفور)؟ ...إلخ.

إذن هناك حقائق كبيرة وخطيرة جدا تموت ولا تذكر، وأخرى حقيرة تحيا وتضخم على حساب الأولى!!

فمن الذي أمات الأولى وأحيا الثانية لدى الغثاء من الناس، وكيف يتم ذلك؟ وهل لهذا القانون دورٌ في فتنة الدجال؟ أسئلة بحاجة ماسة إلى إجابات صادقة!!

تقول بروتوكولات حكماء صهيون:

(وبفضل هذه الإجراءات سنكون قادرين على إثارة عقل الشعب وتهدئته في المسائل السياسية، حينما يكون ضرورياً لنا أن نفعل ذلك)[1]. وهذا ما هو حاصل بالفعل، تثور الشعوب للدفاع عن اليهود وابنتها الاشتراكية، وتهدأ أمام مخططاتهم وجرائمهم.

سياسة التشهير:

إن من أخطار الكذب وأساليبه الوضيعة سياسة التشهير بالمعارضين، فبعض الخصوم من اليهود وأفراخهم أمثال الشيوعية والشيعة الإمامية، لا يَقْدِرون على مواجهة الحق بالحجة والبيان، فتجدهم يسارعون إلى التشهير بالخصوم، وخاصة أهل العلم لتنفير الناس من الحق والحقيقة التي ينتهجون. فيبقى سوق باطلهم وإفكهم رائجاً، ومصالحهم الموهومة والمزعومة قائمة. وقد استُخدِم هذا الأسلوب الحقير منذ زمن بعيد، فقد اتّهَمَ المعارضون لدعوة التوحيد أنبياءهم بشتى انواع التهم الباطلة، ومن صور ذلك:

- الاتهام بالكذب والسحر والجنون والسفاهة: قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ {الذاريات:٥٢}. ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ {الذاريات:٣٩}. ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ {الأعراف:١٠٩}. ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ {ص:٤}. ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ {الأعراف:٦٦}.
- **حادثة الإفك:** تتمثل في التشهير والتنفير من دعوة النبي (ﷺ)، من خلال اتهام أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بِعِرْضِها وعِفّتِها.

---

(١) البروتوكول: (١٢).

فقد تولى إشاعة هذه الجريمة زعيم المنافقين في المدينة المنورة، فأطلق سُمّها في أكرم بيت من البيوت على الله، ولم يَعْلم هذا المنافق، بل إنه يعلم أن في فعلته الشنيعة هذه طعناً في حكم الله سبحانه وتعالى وإرادته، الذي اختار عائشة الطاهرة زوجاً للنبي الكريم (ﷺ). وعلى الرغم من فداحة هذه الجريمة النكراء، إلا أنّ الله سبحانه وتعالى وصفها بالخير، لما فيها من دروس وعبر عظيمة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ {النور:١١}.

من هذه العبر:

١. تأخر نزول براءة عائشة رضي الله عنها لأكثر من شهر، وفي ذلك امتحان لردود الأفعال لدى المؤمنين. فالإشاعة كلما طال رواجها دون بيان زيفها، حصدت أكثر وجندت عدداً أكبر من المتشككين من الناس، وفي ذلك بلاء وتمحيص للإيمان.

٢. تأثيم كل من ردد الإشاعة، ولزعيمها الأكبر العذاب العظيم، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ {النور:١١}.

٣. على المسلم المسارعة في الذب عن عرض كل مؤمن عُلم صلاحه وتقواه يقيناً، وخاصة إذا كانت التهمة كبيرة ومستبعدة، ولا يجب عليه في هذه الحال التبين والتحقق من صدق الخبر انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾{الحجرات:٦}. فإن انتظار نتائج التحقيق لا يصلح في مثل هذا المقام.

لذا فقد أنّب القرآن الكريم المسلمين لعدم المسارعة إلى رَدّ الإشاعة وانتظار القول الفصل من الوحي، بل طالبهم بوصفه فوراً بالإِفْك المُبِين والبُهْتانِ العَظِيم، فالانتظار في مثل هذه الحال ليس في محله، وهو من الورع البارد الذي يؤدي إلى نتائج سلبية،

قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ {سورة النور:١٢}. ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ {النور:١٦}.

٤. أثرت الإشاعة في مختلف درجات المؤمنين، منهم من خاض مع الخائضين، مثل حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش. ونقل الطبري بأسانيده اختلاف الرواة في الشخص الذي تولى كبره، على قولين:

الأول: هو حسان بن ثابت والثاني: عبد الله بن أبي بن سلول، ورجح الطبري الثاني حيث قال: (وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: الذي تولى كبره من عصبة الإفك كان عبد الله بن أبي، وذلك أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير أنه الذي بدأ بذكر الإفك) أ. هـ.

ومن الصحابة-علي (ﷺ)-ممن نصح النبي (ﷺ) بطلاق زوجه، ومنهم من توقف في الأمر ظاهراً، وعلى رأسهم النبي (ﷺ).ولعل قول عائشة لمن حضر من المؤمنين، وفيهم النبي (ﷺ)، وأمّها أم رومان: (والله لئن حلفت لاتصدقوني، ولئن قلت لاتعذروني، مَثَلي ومَثلكم كيعقوب وبنيه، والله المستعان على ما تصفون. قالت: وانصرف ـ أي النبي ـ فلم يقل شيئا). وهؤلاء الذين تناقلوا الخبر بألسنتهم أثموا فيما قالوا. قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾. أما ابن سلول فقد تولى كبره.

من هذه الحادثة يجب أن لا نستبعد خوض بعض الخَيِّرَة من المؤمنين بالباطل، وإذا حصل فعلينا أن لا نغتر بقولهم، وأن لا نشهر بهم، بل ننصحهم بالحكمة لا بالتجريح والتقبيح. فها هو شاعر الدعوة حسان بن ثابت، قد لوثته الإشاعة، والإشاعة إذا تكررت تقررت، وظنها الناس حقيقة، وأسلوب تكرار الإشاعة مع الزمن، من أمضى الأساليب التي يستخدها المغرضون.

٥. الإشاعة سلاح الجبناء، وهي لا تفرق بين صالح وغيره، بل إن مقصود الإشاعة عادة، النيل من الصالحين الصادقين الأمناء من

المؤمنين، لذا فعلى المؤمن ابتداءً، أن يظن بكل من ظهر صلاحه خيراً، ولو توجهت إليه الإشاعة. أو أن يَغْلُبَ على ظنه صِدْقَ وأمانة من طالته الإشاعات وتكررت في حقه، سواء كان ذلك شخصاً أم جماعة أم دولة، ولا يجوز الاعتماد على هذه القاعدة كلياً، حتى يعززها بدراسة الأفكار والمعتقدات التي من خلالها سيعلم الحقيقة.

ثانياً: فقه الموازنات

يُعد فقه الموازنات أو فقه التعارض والترجيح، من العلوم الأساسية الواجب معرفتها على طالب العلم لضبط فقه الواقع، لما له من حاجة ماسة في مختلف شؤون الحياة الإنسانية، لذا تجد أن هذا العلم يمارس من قبل الناس جميعاً في حياتهم المعيشية، للترجيح بين مصلحتين، أو بين مفسدتين، أو الموازنة بين المصالح والمفاسد.

وتشتد الضرورة لفقه الموازنات، لتقرير مسائل فقه السياسة الشرعية عند أولي الأمر. فكثيرا مّا تتعارض أمامهم المصلحة والمفسدة، أو المنافع مع بعضها البعض، أوالمفاسد مع بعضها البعض. وعليه جاء هذا العلم، الذي أرسى قواعده علماء الأصول، ليضع أمام المعنيين من الأمراء والقضاة والسياسيين القواعد الضابطة للوصول إلى المصلحة المرجوة عند تعارض الأدلة.

أقسام فقه الموازنات:

يقسم فقه الموازنات إلى ثلاثة أقسام رئيسية، وقد استنبط العلماء قواعد هذا الفقه من القرآن والسنة:

(أ) **الموازنة بين المصالح**:

المصلحة لغة: هي المنفعة. وضدها يسمى: مفسدة.

والمصلحة في الاصطلاح كما عرفها الغزالي هي: (عبارة في الأصل عن جلب منفعة أو دفع مفسدة...والمحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهي (الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال)...فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة

فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة)[1].

ومن الأدلة التي استنبط منها العلماء قاعدة الموازنة بين المصالح: قوله تعالى:﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ {البقرة:٢١٩}. فقدم القرآن الكريم مصلحة الإنفاق على العيال في حال عدم وفرة المال، على مصلحة الإنفاق على الفقير.

قال العز بن عبد السلام: (واعلم أن تقديم الأصلح فالأصلح، ودرء الأفسد فالأفسد، مركوز في طبائع العباد نظراً لهم من رب الأرباب)[2]. ويقول: (والشريعة كلها مصالح إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح)[3].

يقول ابن تيمية: (إذ الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، والورع ترجيح خير الخيرين بتفويت أدناهما ودفع شر الشرين وإن حصل أدناهما)[4]. ويقول: (ومطلوبها-أي الشريعة-ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا جميعاً، ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعاً)[5].

(ب) **الموازنة بين المصالح والمفاسد:**

الإصلاح والإفساد ضدان ذكرهما الله تعالى في آية واحدة: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ {البقرة:٢٢٠}.

وذكرهما منفردين في آيات أخر، كقوله تعالى:﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾{الأعراف١٧٠}. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ {يونس٨١}.

ومن الآيات الدالة على الموازنة بين المصالح والمفاسد:

---

(١) (المستصفى) ، (ص٢٥١)، عن كتاب (مقاصد الشريعة)، لليوبي (ص٣٩٠).

(١) (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) (ص٧).

(٢) المصدر السابق (ص١١).

(٣) (فتاوى ابن تيمية في الفقه) (١٩٣/٣٠).

(٤) (فتاوى ابن تيمية في الفقه) (٣٤٣/٢٣).

قولـــه تعـــالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾{البقـرة:٢١٩}. ففـي قولـه تعـالى: ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾، دلالـة واضـحة علـى الموازنـة بين المصـالح والمفاسد. في قوله تعالى: ﴿ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ ﴾ {النساء:٣}. وفيها تقديم مصلحة الزواج من واحدة، على مفسدة التعدد في الزواج من النساء.وقاعدتها الأصولية: (درء المفاسد أولى من جلب المنافع).

يقول ابن تيمية: (.... فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة، إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب...)[1].

(ج) **الموازنة بين المفاسد**:

ذكر القرآن الكريم قصة الخضر عليه السلام حين خرق السفينة وهي صالحة. فقد أحدث فيها مفسدة، ليدفع بها مفسدة أعظم، ألا وهي غصب السفينة من قبل الملك. فلولا هذا الخرق أو المفسدة لأخذها الملك، وضاع أهلها الذين يقتاتون بما رزقهم الله من دخلها. قال تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ {الكهف:٧٩}.

وفي هذه القصة دليل على جواز قصد إحداث مفسدة مّا، لدفع أخرى راجحة، ولا يُعد ذلك من باب الخيانة للأمانة أو للأمة.

فكيف يكون الحال إذا فَرَضَ الواقع نفسه بضغط من الرعية المطالبين ببعض الأمور خلاف الأولى، كقيادة المرأة للسيارات، أو عملها خارج البيت، أو بالضغط من قبلهم، أو من قبل الأعداء لقبول بعض المفاسد المخالفة للشريعة، كالمشاركة في المجالس البرلمانية بطريقة الانتخابات، أو تشكيل الأحزاب، أو الأستعانة بالجيوش غير

---

(١) (الفتاوى) (٢٦/٢٨).

المسلمة لدفع عدو صائل، أو توقيع معاهدة سلام مع الأعداء والتنازل فيها عن بعض الحقوق، أو بالضغط من قبل الأعداء لتسليمهم بعض الرعايا المسلمين في ظروف خاصة حرجة، لا شك أن عمل مثل هذه الأمور في مثل هذه الأحوال القاهرة أولى بالجواز، لما سيترتب على عدم الاستجابة لهذه الضغوط من مفاسد كبيرة تهدد وجود الدولة الإسلامية.

فقد روى تاج الدين السبكي في أحداث سنة ٦١٦هـ، قصة حصلت بين جنكزخان طاغية التتار والسلطان علاء الدين خوارزمشاه محمد بن تكش، أحد سلاطين المماليك، وكان ملكاً عظيماً، اتسعت ممالكه، وعظمت هيبته، وأذعنت له العباد... والقصة تُحَمّل هذا السلطان نتيجة ما حل بالمسلمين على يد التتار من ألوان الدمار والقتل، بسبب عدم تسليم نفس واحدة من المسلمين لجنكيزخان، وتفصيل القصة بتصرف يسير، كما يلي:

(إن جماعة من التجار المسلمين، خرجوا الى بلاد جنكزخان دون إذن السلطان خوازمشاه ومعهم المستظرفات. فقابلهم جنكزخان وأكرمهم غاية الإكرام، ورداً على سؤاله لهم: لأي شيء انقطعتم عنا؟ فقالوا: إن السلطان خوارزمشاه منع التجار من المسافرة إلى بلادك، ولو علم بنا لأهلكنا.

فأرسل جنكزخان رسله إلى خوارزمشاه لإعادة العلاقات التجارية المتبادلة بين البلدين. وأرسل من جهته تجاراً معهم أموال لا تعد ولا تحصى. فلما انتهوا إلى الأترار عمد نائب خوارزمشاه بها، فكتب إلى خوارزمشاه بأن يقتلهم ويأخذ أموالهم. فأصدر خوارزمشاه مرسوماً بقتلهم وسلب ما كان معهم. فأرسل جنكزخان إلى خوارزمشاه: هذا الذي جرى، أعلمني هل هو عن رضى منك؟ إن لم يكن برضاك فنحن نطلب بدمائهم من نائب الأترار.

فكان جواب خوارزمشاه: أن هذا كان بعلمي وأمري، وما بيننا إلا السيف. فقام ولده السلطان جلال الدين وكان عاقلاً وأشار على والده أن يتلطف في الجواب ويخلي بين جنكزخان ونائب الأترار، ويسلطه على دم واحدة يحمي به المسلمين من نهر جيحون إلى قريب بلاد الشام، ومساجد لا تحصى عددها، ومدارس، وأمم لا يحصون، وأقاليم. فأبى والده إلا السيف وأمر بقتل الرسل.

فيالها من فعلة ما كان أقبحها! أجْرَتْ كل قطرة من دمائهم سيلاً من دماء المسلمين)[1].انتهى

وهذا ما حصل لحركة طالبان من قريب. حيث رفضت ما كان رفضه سبباً في ضياع دولة وسقوطها. وعلى الذين لا يستطيعون تقدير هذه الأمور، ترك خيار التقدير لأولي العلم الفقهاء في الواقع، ثم احترام رأيهم، وعدم التعرض للحومهم، فهم ما قاموا بذلك إلا لحفظ مقاصد الشريعة، وعلى رأسها حفظ الضرورات.

وفي باب الترجيح بين المفاسد كذلك قوله تعالى:﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ ﴾ {البقرة:٢١٧}. فمن باب درء المفسدة الكبرى بالصغرى، أجاز لنا القرآن الكريم القتال في الشهر الحرام مع أنه كبير، لدفع ما هو أكبر.

وقوله تعالى:﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ {المائدة:٨٢}.

ودلالة الآية: ذكر لنا القرآن أسماء أشد الناس عداوة للمؤمنين من بين جميع الأعداء، لأخذ الحيطة والحذر من جهتهم. لذا فرّق الله سبحانه وتعالى بين المقاتلين لنا في الدين من الأعداء من غيرهم، كما في قوله:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾{الممتحنة:٨-٩}. يقول ابن تيمية: (إذ الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، والورع ترجيح خير الخيرين

(١) (طبقات الشافعية)، (١/٢٣٢-٢٣٣). تحت عنوان: واقعة جنكزخان وحفيده هولاكو.

بتفويت أدناهما ودفع شر الشرين وإن حصل أدناهما)[1]. ويقول: (ومطلوبها - اي الشريعة - ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا جميعاً ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعاً)[2].

إذن في حالة تعارض المفاسد، وانطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ ﴾{التغابن:١٦}، فإنه يُصار إلى دفعهما جميعاً، فإذا لم يندفعا جميعاً، دفعنا الأفسد فالأفسد، على النحو التالي:

- تدفع المفسدة المجمع عليها بالمفسدة المختلف فيها)[3].
- تدفع المفسدة الكبرى بالصغرى[4].
- تدفع المفسدة التي يترتب عليها ضرر عام بالتي يترتب عليها ضررٌ خاص[5].

(د) **الموازنة بين الأعداء:**

أعداء الإسلام ليسوا سواءً، كما يظن أغلب العوام في هذا الزمان. وهذه الفكرة أثارها حزب التحرير والشيوعيون والاشتراكيون بين المسلمين لإضلالهم وخداعهم وصرفهم عن أشد الناس عداوة للذين آمنوا، فراجت بيننا بالتكرار والزمن، مقولة: (كلهم أعداء، أو كلهم خَوَنٌ).

واعتُبِرَتْ هذه المقولة من المُسَلّمات، فترتب على ذلك، ليس فقط تكذيب الأنظمة الصادقة وتخوين الأنظمة الأمينة، التي أمرنا الله تعالى أن نكون معهم، كما في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ

---

(١) (فتاوى ابن تيمية في الفقه) (١٩٣/٣٠).

(٢) (فتاوى ابن تيمية في الفقه) (٣٤٣/٢٣).

(١) (مقاصد الشريعة الإسلامية) ، للدكتور محمد سعد اليوبي، (ص٣٩٩)، ط/١، دار الهجرة.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة.

ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ }{التوبة:١١٩}. بل انقلب هذا العداء للأنظمة الصادقة والأمينة إلى عطف على أعدائنا البعثيين والشيوعيين وأمثالهم. وهذا الأمر جلل وشره مستطير. فعكسوا الواقع والحقيقة في قول الله تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ } {المائدة:٨٢}.

ومن الأدلة القرآنية الواردة لبيان فقه الموازنات بين الأعداء:

قوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ } {الروم:٢-٤}.

الملفت للنظر أن هذا الحدث: هزيمة الروم أمام الفرس، يبعد عن المدينة المنورة مسافة لا تقل عن (١٠٠٠) كم. فلو لم يذكر لنا القرآن الكريم هذه الحادثة، لما ترتب على المسلمين مفسدة تلحق بهم في ديارهم حينها. إنما أراد منا الشارع الحكيم أن نوظف هذا الحدث لمصلحتنا، ونحكم عليه من خلال ثوابتنا وأصولنا وقواعدنا الفقهية السياسية.

فتجد أن المسلمين قد تعاطفوا مع الروم لأنهم الأقرب إلى ديننا من الفرس، علماً أن هذا التعاطف معهم ليس من باب الولاء أو العمالة لهم في شيء. إنما هو من باب تقليل الشر في الأرض قدر الإمكان، ولو بتغيير الشر الأكبر والكفر الأكبر (الفرس)، بالشر الأصغر والكفر الأصغر (الروم)، تطبيقاً للقواعد الأصولية: (دفع الضرر الأكبر بالضرر الأصغر) أو: (اختيار أدنى المفسدتين) أو (درء المفاسد وتقليلها)، ولا يقال في مثل هذا الموضع (كلهم كفار) [1]، فهناك كفر وكفر أكبر، وشر وشر أكبر.

ويالأسف تجد البعض يوافقنا على هذه القواعد الأصولية نظرياً،لكنه يخالفنا عملياً وواقعياً، حين نقرر أن الخطر الاشتراكي

---

(١) وقول: (كلهم كفار) ليس في المعاملة في الدنيا، بل في حكم الآخرة أنهم كلهم في النار.

اليهودي هو الأكبر والأشد على مصالح المسلمين من الخطر الرأسمالي الغربي،انسجاماً مع الواقع الذي نراه ضمن تقريرات الشرع، ولا يرونه بسبب الدعايه المضللة، ومع الآية القرآنية: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ {المائدة: ٨٢}.

هجرة المسلمين إلى بلاد الحبشة النصرانية:

فهل يستقيم اتهام الصحابة المهاجرين إلى الحبشة النصرانية بالولاء والعمالة لها، لقبولهم العيش في كنف النصارى وتحت حكمهم؟ إن الأمر ليس كذلك، إنما كانت هجرتهم إلى الحبشة، من باب (اختيار أدنى المفسدتين)، فمفسدة قريش (الوثنية)، أبناء العمومة، أعظم من مفسدة الحبشة (النصارى)، هذه مقاييس الشرع إعمالاً للمصالح، مع أننا نسمع من يردد مقولة: أنّا ضد أي عداء كان ضد أي عربي، نقول: حتى لو كان اشتراكياً كافراً؟ فعجباً لهؤلاء!!

فانطلاقاً من مقصد الشريعة الأسمى: (تحصيل المصالح و تكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها) نقول باختصار: علينا أن لا نرفض، بل نؤيد كل ما يؤدي إلى تغيير الواقع من الشر إلى شر أقل منه، فإن ذلك يدفع باتجاه تقليل الشر في الأرض، وبالتالي يساهم في قرب النصر.

لذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر إنما العاقل الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين)[1].

ويقول: (فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ولا دفع أخف الضررين بتحصيل أعظم الضررين، فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا جميعاً، ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعاً)[2].

ويقول: (إذ الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، والورع ترجيح خير الخيرين بتفويت أدناهما

---

(١) (فتاوى ابن تيمية في الفقه) (٢٠/٥٤).

(١) (فتاوى ابن تيمية في الفقه) (٢٣/٣٤٣).

ودفع شر الشرين وإن حصل أدناهما)[1].

إذن من الورع أن ندفع شر الشرين: (الاشتراكية الصهيونية) بالشر الأدنى: (الديموقراطية الغربية)، ولا يكون ذلك إلا في حالات الاضطرار، أما في حالة الاختيار، فلا شرقية ولا غربية.

ولقد رفع الخميني الاشتراكي الشيعي الإمامي شعار: (لا شرقية ولا غربية) أيام شاه إيران الرأسمالي، فلما استلم الخميني الحكم جعلها شرقية اشتراكية وحارب التوجه الرأسمالي الغربي الذي كان سائداً أيام الشاه، ولو كان مسلماً حقاً كما يدعي لرفض التوجه للشرق الاشتراكي كذلك، إنما استدرج غثاء المسلمين بشعاره المضلل حينئذ، وخدعهم بذلك، وربط إيران بموسكو رأساً.

ثالثا: فقه الأولويات

يُعد فقه الأولويات من الأسس المهمة المرتبط بفقه السياسة الشرعية، وفي العادة فإن ضبط فقه الموازنات السابق الذكر، يعين الفقهاء على تحديد الأولويات.

المقصود بفقه الأولويات:

ترتيب الأعمال المطلوب القيام بها لتحقيق هدف مّا، حسب الأهمية والحاجة إليها في الزمان أوالمكان المحددين، بحيث لا نقدم المهم على الأهم، ولا ما هو من الدرجة الصغرى على الدرجة الكبرى.

ولما كان الهدف المنشود لدى المسلمين عموماً هو العمل بكتاب الله وسنة نبيه وتطبيقهما في المجتمع الاسلامي، للخروج من الأزمات المختلفة، وليتحقق بذلك النصر على الشهوات والشبهات والأعداء، فإن الحاجة لفقه الأولويات له حضوره وأهميته. وليس من الصعب على المسلمين الاتفاق على تحديد شروط النصر، أو شروط التغيير، بقدر اتفاقهم على تحديد الأولويات الواجب العمل بها في هذه المرحلة الحرجة. فقد نتفق على ضرورة هذه الشروط، لكن سرعان ما نختلف على أولويات العمل بها.

---

(٢) (فتاوى ابن تيمية في الفقه) (١٩٣/٣٠).

أهم الموضوعات في ترتيب سلم الأولويات في الفقه السياسي

♦ **العقيدة أولا:**

وفيه العمل على تجذير الإيمان الصادق في الأمة، وعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت. قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾{البقرة:٢٥٦}. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ {النحل:٣٦}.

فالعقيدة مقدمة على كل عمل مهما كانت سمو درجته، فلا نصر ولا عز ولا كرامة مع الشرك، لا في الدنيا ولا في الآخرة. ومن المهم تقديم رابطة العقيدة على كل رابطة من دونها مهما كانت صلتها بالفرد، كرابطة القرابة والنسب، ورابطة الأرض، ورابطة القومية، وأمثالها. قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ {المجادلة:٢٢}.

♦ **الأركان مقدمة على سائر الفرائض:**

بعد سلامة العقيدة، تأتي أركان الإسلام في الأولوية لعظم شأنها، ويكفي أن يقال فيها، ما جاء عن النبي (ﷺ): (بني الاسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً). فهي من المعلوم من الدين بالضرورة، فمن أنكرها، أو استهزأ بها، فقد كفر.

♦ **الفرائض مقدمة على النوافل:**

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي (ﷺ) أنه قال: (يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه

فإذا أحببته...) {صحيح}.

ودلالة الحديث واضحة في قوله: (وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه)؛ فالفرائض أحب إلى الله تعالى من النوافل، التي تأتي بالدرجة التالية، وهذه الفرائض المقصودة هي ما انعقد عليها إجماع الأمة من دون الأركان السابقة. منها حرمة الربا، وبر الوالدين، والحدود، والمواريث، والزواج، وغيرها.

♦ **تقديم فهم الصحابة على غيرهم:**

المقصود تقديم إجماع فهم الصحابة على غيرهم، لقوله تعالى:

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾{النساء:١١٥}.

قال ابن كثير في تفسيرها: (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى،أي: ومن سلك طريقاً غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول (ﷺ)،فصار في شق والشرع في شق،وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له،وقوله (وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ): هذا ملازم للصفة الأولى ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم) اهـ.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ {التوبة:١٠٠}.

وقال رسول الله (ﷺ): (خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) {رواه البخاري}.

♦ **البناء الأخلاقي:**

لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢﴾ ﴾{سورة الجمعة: ٢}. قال تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾{الشمس:٩}. فتزكية النفس المؤمنة بالخلق الحسن والقيم النبيلة من ضرورات التغيير المنشود. بل إن بناء

الهيكل الأخلاقي له أكبر الأثر في التأثير في الآخرين، لأن حسن الأخلاق من مقومات ثبات المجتمع ولمعان بريقه في عيون الغير.

♦ **رعاية الضروريات، ثم الحاجيات، ثم التحسينيات:**

لقد جاءت الشريعة الإسلامية بجملة من المصالح للعناية بها وإقامتها في المجتمع، ولتفاوت درجات هذه المصالح في الأهمية، تقدم المصالح الضرورية على المصالح الحاجية، وتقدم المصالح الحاجية على المصالح التحسينية.

أ) **الضروريات:**

يقول الشاطبي في تعريفها: (ما لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين) [1] .

وقد جاءت كل أمة بحفظها وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل،والعقل،والمال،وقد شرع الإسلام لحفظ هذه الضروريات ما يجلبها وما يحفظها،وهي متفاوتة في درجاتها،فأولها وأولاها،حفظ الدين،فهو مقصد الحياة،لقوله تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ {الذاريات:٥٦}.

فلا يجوز التنازل عن الدين وتركه لأجل أي من هذه الضرورات، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ {النحل:١٠٦}، كما حصل مع عمار بن ياسر رضي الله عنه، إذ شتم نبيه، تحت الإكراه.

ب) **الحاجيات:**

وهي التي يتعلق بها رفع الحرج في العبادات والعادات

---

(١) (الموافقات) (٨/٢).

والمعاملات[1]. فقد تميزت هذه الشريعة السمحاء برفع الحرج عن أهلها، لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ﴾{الحج:٧٨}. وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾{البقرة:٢٨٦}. والحاجة إلى الحاجيات تكون دون الضرورات التي لو فقدت لاختل نظام الحياة.

فالحاجيات لو فقدت لَلَحِقَ بالناس حرج ومشقة، في عباداتهم، كالصيام في نهار رمضان للمسافر والمريض، وما يلحق بالناس من حرج في عاداتهم، كالمأكل والمشرب والمسكن والملبس، ودرجة الحاجيات في هذه العادات هي درجة التوسط، فالحد الأدنى منها يعد من الضروريات، والحد الأعلى من التحسينيات.

ج) **التحسينيات:**

تكون فيما يتعلق بمكارم الأخلاق[2]. وهي: ما لا يرجع إلى ضرورة ولا إلى حاجة، وهي: (خادم للأصل الضروري ومحسنة لصورته الخاصة)[3]. وبها يظهر (كمال الأمة في نظامها حتى تعيش أمة آمنة مطمئنة، ولها بهجة منظر المجتمع في مرأى بقية الأمم حتى تكون الأمة الإسلامية مرغوباً في الاندماج فيها، أو في التقرب منها)[4].

رابعاً: فقه التغيير

تسعى كل أمة من الأمم عبر التاريخ للحصول على التغيير الإيجابي الذي يحقق لها المصالح ويدرأ عنها المفاسد، وفق معتقداتها وأخلاقها. لذا فقد اختلفت مدارس التغيير وتباينت نتيجة لتلك المبادىء والمعتقدات.

---

(١) انظر: (الموافقات)، للشاطبي: (١١/٢)، (الأحكام) للآمدي (٢٧٤/٣).

(٢) (الموافقات)، للشاطبي (١١/٢).

(٣) (الموافقات) ، للشاطبي (٤٢/٢).

(٤) (مقاصد الشريعة)، لابن عاشور، (ص٨٢).

ففي الوقت الذي سعت فيه بعض المدارس أمثال الملحدين وعبدة الأوثان، إلى المخلوق لنيل التغيير الإيجابي، توجهت أخرى من أتباع الديانات السماوية إلى الخالق. ثم تباينت بعد ذلك رؤى أصحاب المذاهب الأرضية إلى طرق شتى، ففي الوقت الذي رأى فيه البعض الانطلاق إلى الهدف من التغيير الاقتصادي، حَصَرَهُ آخرون في التغيير السياسي، وهكذا.

أما داخل المدرسة الإسلامية، فقد تباينت كذلك رؤى الإصلاح والتغيير، قديما وحديثاً، فمن جهة مصدر التلقي، انقسم الإصلاحيون إلى ثلاث مدارس:

- **مدرسة النقل (الوحي):** وهؤلاء ينطلقون من العقيدة السليمة ومحاربة الشرك، والدعوة إلى الاتباع ونبذ الابتداع، وهم السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان، وشعارهم في الواقع المعاصر (التصفية والتربية).
- **مدرسة العقل:** وهؤلاء يقدمون العقل على النقل (الوحي). وأشهر رؤوسهم المعتزلة والأشاعرة.
- **مدرسة الكشف والذوق:** وهؤلاء ينطلقون من الكشف الصوفي للوصول إلى الحقيقة، وهي في نظرهم وحدة الوجود.
- أما من جهة ساحة التغيير، فقد انقسمت رؤى الإصلاح والتغيير إلى **مدرسة الدعوة إلى التغييرعن طريق تغيير ما بالأنفس**، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ {الرعد:١١}. وأصحاب هذه المدرسة هم السواد الأعظم في كل زمان، وهم السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان، ومن المعاصرين: السلفيون، والإخوان المسلمون، وجماعة الدعوة والتبليغ، والصوفيون.
- **مدرسة الدعوة إلى التغييرعن طريق تغيير الأنظمة القائمة،** وأصحاب هذه المدرسة هم: الخوارج قديماً، و(حزب التحرير الإسلامي) حديثاً، وهم الوحيدون الذين خرجوا عن السواد الأعظم، ومنهج السلف الصالح عبر العصور، ومنهجهم يقوم على تغيير الأنظمة الحاكمة ليقوم الإسلام كله في الناس.

ومع التكرار والزمن، فقد تأثر بطرح الخوارج وحزب التحرير، كثيرون ممن ينتسبون إلى الجماعات الإسلامية الأخرى، مثل

الإخوان المسلمين-في وقت مبكر-والسلفية، والصوفية، والدعوة والتبليغ. ففي الوقت الذي اكتفى فيه بعض هؤلاء من المتأثرين بالخوارج وبفكر حزب التحرير بالمعارضة السياسية ومناكفة الأنظمة القائمة سلمياً، دعا البعض الآخر منهم إلى الخروج على الأنظمة بحمل السلاح، وتطور الأمر ببعضهم إلى التكفير والتفجير العشوائي وإذا علمنا أن مؤسس حزب التحرير الشيخ تقي الدين النبهاني، كان بعثياً اشتراكياً[1]. وكان عضواً في (كتلة القوميين العرب) اليسارية[2]، قبل تأسيسه لحزب التحرير، تبين لنا مصدر فساد منهج حزب التحرير في التغيير.

فالاشتراكية - وهي من أصل يهودي - تقوم على تطبيق نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ، وهذه النظرية تعمل على قلب النظم السياسية والاجتماعية القائمة في العالم أجمع، ومنها الدول الإسلامية التي تعادي اليسار، فَسَرَتْ هذه النظرية في فكر الحزب وكتبه ومنشوراته، ومن ثم إلى أفراده، ومن ثم إلى الأمة الإسلامية.

أما من جهة طبيعة التغيير ومادته، فقد تباينت الجماعات الإسلامية المعاصرة فيه تبايناً واضحاً، علماً بأن الجميع يقولون بأنهم يتخذون من الكتاب والسنة دستوراً، ومنهجاً في التغيير. وهذا هو أهم وأبرز جانب من الجوانب التي ركزت عليها كل جماعة:

اسم الجماعة	أبرز جانب اشتهرت به
السلفية	العقيدة ومجانبة البدع بالأمر والنهي
الصوفية	الذكر والدروشة
الإخوان المسلمون	الحركة والتنظيم والتجميع كيفما اتفق
حزب التحرير	السياسة
الدعوة والتبليغ	الأمر بالمعروف والوعظ القصصي

وهذه الجوانب كلها لا شك أنها من دعوة الإسلام الشاملة، إلا أن الصوفية اتخذت من الذكر جسراً لتعبر من خلاله إلى أوحال الشرك. وحزب التحرير اتخذ من السياسة المغرضة المخالفة للواقع

---

(١) (موسوعة الحركات الإسلامية في الوطن العربي وإيران وتركيا)، (ص٣٩٧)، إصدار مركز دراسات الوحدة العربية.

(٢) (القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين من ١٩١٧- ١٩٤٨) ، تأليف: بيان نويهض، (ص٩٠٠)، طبعة بيروت، (١٩٨١).

طريقاً لإضلال المسلمين، وَجَعَلَهُم بذلك غثاء لِسَيْلْ الاشتراكية الفكري الجارف.

إن الاكتفاء بجانب واحد من جوانب التغيير المذكورة، وغيرها ممن لم تذكر كالجانب الاجتماعي، والثقافي والاقتصادي، لا يحقق التغيير المنشود، حتى تتكامل هذه الجوانب كلها في المجتمع المسلم، ثم لا بد أن يسير بها المصلحون وفق السنة الكونية التي لا تتبدل ولا تتغير لتحقيق التغيير المنشود، المتمثلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ {الرعد:١١}. ولأهمية هذه السنة الكونية ولخطورة تجاهلها، أو تخطيها لا بد من إقامة الحجج والبراهين الدالة عليها.

حتى يغيروا ما بأنفسهم

وقفة قصيرة مع خطر الصراع مع الأنظمة

ليعلم أولئك البعض، ممن قل اعتبارهم لسنن الله تعالى في خلقه، أن ما ذهبوا إليه من تصورات في طريق التغيير المنشود، سيؤدي إلى الانشغال بالحاكم، وتركيز الصراع مع النظام السياسي القائم وإسقاطه، فينتج عن ذلك ازدياد الفساد والإفساد في الناس لتوقف مسيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو إعاقتها بحجة الانشغال بتغيير منكر الحكام.

فمشروع الصراع مع الأنظمة الحاكمة وضرب الحاكم بالمحكوم من أهم الأساليب المستخدمة من قبل الصهيونية وذراعها الأقوى (الاشتراكية) للسيطرة على العالم، فعن طريق الثورات الشعبية التي يقفون خلفها ويوجهونها بواسطة عملائهم الاشتراكيين على اختلاف أسمائهم، يقودون الثورة ويركبون الموجة، ويقومون بعد ذلك بتصفية المعارضة، مهما كان دينها أو عرقها.

وللتدليل على ذلك نقرأ في بروتوكولات حكماء صهيون ما يلي:

(وذلك حين يحين الوقت لتغيير كل الحكومات القائمة من أجل أوتقراطيتنا، أن تعرفنا لملكنا الاتوقراطي[1] يمكننا أن نتحقق منه قبل إلغاء الدساتير، أعني بالضبط أن تعرف أن حكمنا سيبدأ في اللحظة ذاتها حين يصرخ الناس الذين مزقتهم الخلافات وتعذبوا تحت إفلاس حكامهم (وهذا ما سيكون مدبراً على أيدينا) فيصرخون هاتفين: اخلعوهم وأعطونا حاكماً عالمياً واحداً يستطيع أن يوحدنا، ويمحق كل أسباب الخلاف، وهي الحدود والقوميات والأديان والديون ونحوها.. حاكماً يستطيع أن يمنحنا السلام والراحة اللذين لا يمكن أن يوجدا في ظل رؤسائنا وملوكنا وممثلينا. ولكنكم تعلمون علماً دقيقاً وافياً أنه لكي يصرخ الجمهور بمثل هذا الرجاء، لابد أن يستمر في كل البلاد اضطراب العلاقات القائمة بين الشعوب والحكومات، فتستمر العداوات والحروب والكراهية والموت استشهاداً أيضاً)[2].

(إننا نخشى تحالف القوى الحاكمة مع الأمميين (غير اليهود) مع قوة الرعاع العمياء، غير أننا قد اتخذنا كل الاحتياطيات لنمنع احتمال حدوث هذا الحادث. فقد أقمنا بين القوتين سداً قوامه الرعب الذي تحسه القوتان كل من الأخرى، وهكذا تبقى قوة الشعب سنداً إلى جانبنا، سنكون وحدنا قادتها، وسنوجهها لبلوغ أغراضنا)[3].

وتقول أيضاً:

(ولكي يكون الملك[4]محبوباً ومعظماً من كل رعاياه ـ يجب أن يخاطبهم جهاراً مرات كثيرة. فمثل هذه الإجراءات ستجعل القوتين في انسجام، أعني قوة الشعب وقوة الملك اللتين قد فصلنا بينهما في البلاد الأممية (غير اليهودية) بإبقائنا كلا منهما في خوف دائم من الأخرى. ولقد كان لزاماً علينا أن نبقي كلتا القوتين في خوف من الأخرى، لأنهما حين انفصلتا وقعتا تحت نفوذنا)[5].

---

(١) الأوتوقراطية هي: نظام الحكم الفردي الاستبدادي.

(١) البروتوكول العاشر.

(٢) البروتوكول التاسع.

(٣) المقصود بالملك: (ملك إسرائيل) بعد تتويجه لحكم العالم، أو أي حاكم أو ديكتاتور ممن يأتون بانقلاب عسكري موجه من قبل اليسار (الماركسية).

(٤) البروتوكول الرابع والعشرون.

وقبل البدء بالاستدلال على ما ذهبنا إليه من أن التغيير المنشود يكون بتغيير الأنفس أولاً[1]، علينا أن نتذكر حقيقة شرعية، أن الالتزام بالإسلام لا يصح إلا إذا كان خالصاً لله تعالى، فإيمان المصالح والمنافع، وإيمان الإكراه والقهر مخالف لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾{البينة:٥}، ومخالف لقول الرسولة(ﷺ): (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه) {متفق عليه}.

فمن تظاهر بالإسلام طلباً لمنفعة أو دفعاً لمفسدة، أو تزلفاً لحاكم، فقد نافق ومن نافق خسر خساناً مبيناً، ومقصود الشريعة إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان، فعلينا أن نتذكر هذه الحقيقة للأهمية الأساسية.

الأدلة على أن التغيير يكون بتغيير ما بالأنفس

الآيات القرآنية:

ورد في القرآن الكريم، العديد من الآيات الدالة على إثبات التعاضد وتركيز العمل على إصلاح الرعية والانشغال بذلك، منها:

أولاً: إذا صلحت الرعية أفرزت حاكماً صالحاً، وإذا فسدت الرعية أفرزت حاكما فاسداً: ورد هذا المفهوم الجلي في العديد من المواضع من كتاب الله تعالى منها:

١- قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾{الأنعام١٢٩}.

تدل الآية على أن الله تعالى يولي بعض ظلمة المجتمع بعضاً في الحكم، فإذا علمنا أن الحاكم هو إفراز من المجتمع، وأن المجتمع يُسوّد على نفسه من يراه الأصلح لتحقيق أهدافه وغاياته، دل ذلك بكل تأكيد على أن القاعدة العامة تقول: (إذا صلحت الرعية أفرزت حاكماً صالحاً، وإذا فسدت الرعية أفرزت حاكماً فاسداً).

---

(١) وثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً...وعاشراً.

ينقل القرطبي قول ابن عباس وابن زيد في تفسير هذه الآية قائلاً:

قال ابن عباس: (إذا رضي الله عن قوم ولى أمرهم خيارهم، وإذا سخط الله عن قوم ولى أمرهم شرارهم).

وقال ابن زيد: (نُسلّط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذله، وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه يسلط الله عليه ظالماً آخر، ويدخل في الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الرعية أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم)[1] انتهى.

قال ابن أبي العز الحنفي:

(فإذا أراد الرعية أن يتخلَّصوا من ظلم الأمير فليتركوا الظلم) [2].

وقال الشيخ الألباني رحمه الله:

(وفي هذا بيان لطريق الخلاص من ظلم الحكام الذين هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، وهو أن يتوب المسلمون إلى ربهم ويصححوا عقيدتهم ويربوا أنفسهم وأهليهم على الإسلام الصحيح تحقيقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾{الرعد:١١}، وإلى ذلك أشار أحد الدعاة المعاصرين[3] بقوله: (أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم لكم على أرضكم). وليس طريق الخلاص ما يتوهم بعض الناس وهو الثورة بالسلاح على الحكام. بواسطة الانقلابات العسكرية[4] فإنها مع كونها من بدع العصر الحاضر فهي مخالفة لنصوص الشريعة التي

---

(١) (تفسير القرطبي) (٨٥/٧).

(٢) (شرح العقيدة الطحاوية)، ط/ ٥، ١٣٩٩ هـ، (ص٤٣٠).

(١) قال الشيخ الألباني رحمه الله: وهو الأستاذ حسن الهضيبي – رحمه الله–.

(٢) من أمثلة هذه الانقلابات، انقلاب (ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الاشتراكية) في مصر، والثورات الاشتراكية الأخرى في كل من، سوريا وليبيا واليمن والعراق والصومال والسودان والجزائر وإيران وإندونيسيا.

منها الأمر بتغيير ما بالأنفس وكذلك فلا بد من إصلاح القاعدة لتأسيس البناء عليها:﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾{الحج:٤٠}[١]، انتهى.

وفي معرض حديثه عن أسباب انتقال الأمر من الخلافة إلى الملك،قال ابن تيمية: (وقد ذكرت في غير هذا الموضع،أن مصير الأمر إلى المُلوك ونوابهم من الولاة،والقضاة والأمراء،ليس لنقص فيهم فقط،بل لنقص في الراعي والرعية جميعا، فإنه (كما تكونوا يُوَلّ عليكم) [٢]، وقد قال الله تعالى:﴿وكذلِكَ نولي بعضَ الظالمينَ بعضاً﴾ {الحج:٤٠}[٣]،انتهى.

٢- قوله تعالى:﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾{الرعد:١١}.

وهذه الآية أصرح في الدلالة على المراد، وهي عامة تشمل نوعي التغيير سواء من الخير إلى الشر أو العكس. ونلاحظ أن الآية تتحدث عن تغيير يحدث في القوم ـ أي الجماعة ـ وليس في شخص الحاكم دون المحكوم. وليس بالضرورة أن يحصل التغيير بتغيير فئة قليلة في المجتمع، إنما المراد أن يكون التغيير غالبا فيه. وتجدر الإشارة إلي أن الله تعالى قد وعد بالتغيير إلى الخير والتمكين للمؤمنين في الأرض بعد توفر شروط وانتفاء موانع كما سيأتي بيانه قريباً إن شاء الله تعالى.

يقول الطبري في تفسيرها: (إن الله لا يغير ما بقوم من عافية ونعمة فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضاً، واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره) [٤].

وقال القرطبي و ابن كثير بمثله.

---

(٣) (العقيدة الطحاوية)، شرح وتعليق، ط/ المكتب الإسلامي ١٩٧٨ (ص٤٧).
(٤) ضعفه الشيخ ناصر في (السلسلة الضعيفة) (٤٩٠/١)، (رقم ٣٢٠).
(٥) (مجموع الفتاوى) (٢٠/٣٥).
(١) (تفسير الطبري) (١٢١/١٣).

ويقول ابن القيم:

(وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته، فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴿١١﴾ ﴾ {الرعد: ١١})[1].

ويقول محب الدين الخطيب في كلام نفيس:

(وقد يظن من لا نظر له في حياة الشعوب وسياستها أن الحاكم يستطيع أن يكون كما يريد أن يكون حيثما يكون. وهذا خطأ، فللبيئة التأثير في الحاكم، وفي نظام الحكم أكثر مما للحاكم ونظام الحكم من التأثير على البيئة. وهذا من معاني قول الله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ))[2]، انتهى.

ثانياً: أن العذاب ينزل بذنوب الأقوام من أهل القرى، وليس الولاة فقط:

وسبب وضع هذا العنوان أن البعض قد ابتعد عن الحق كثيراً في رسم حدود مسؤولية الحكام، فأناط بهم تغيير كل شيء في المجتمع سواء وقع الأمر ضمن دائرة مسؤوليته، أم ضمن دوائر أصحاب المسؤوليات الأخرى، التي ذكرها الحديث الشريف: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته...).

والآيات الدالة على المعنى المذكور في العنوان كثيرة، منها:

- ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾ {الحج:٤٨}.
- ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾ {الأنبياء: ١١}.

من الملاحظ أن هذه الآيات تؤكد بوضوح وجلاء، أن السبب المباشر لوقوع العذاب، وقوع الظلم من أهل القرى عامة حكاماً ومحكومين وليس بذنوب الحكام فقط. وأنها سنة الله التي قد خلت في

---

(٢) (بدائع الفوائد) (٤٣٢/٢).

(١) في كتاب (العواصم من القواصم) (ص٧٧).

عباده، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ {غافر:٨٥}.

قال ابن القيم:

(ومن تأمل ما قص الله تعالى في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم، وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس)[1]، انتهى.

ويقول كذلك:

(فما أزيلت نعم الله بغير معصيته، إذا كنت في نعمة فارعها، فإن المعاصي تزيل النعم. فآفتك من نفسك، وبلاؤك من نفسك، وأنت في الحقيقة الذي بالغت في عداوتك، وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك. كما قيل: ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه) [2]، انتهى.

ثالثاً: إن البركة تنزل بسبب تحقق إيمان أهل القرى جميعاً وليس الولاة فقط.

والآيات في ذلك كثيرة، منها:

- ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ {الأعراف:٩٦}.

رابعاً: شروط تحقق الوعد بالتمكين والاستخلاف (التغيير إلى الخير) متعلقة بالجماعة وليس بالولاة فقط.

ومن الآيات الدالة على ذلك ما يلي:

---

(١) (بدائع الفوائد) (٢/٤٣٢).

(٢) (طريق الهجرتين) (١/١١٠- ١١١). وانظر: (الفوائد) (١/١٨١، ٢١٠).

- ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ {النور:٥٥}.

تضمنت الآية الشروط الواجبة لتحقيق وعد الله تعالى لعباده بالاستخلاف والتمكين في الأرض، وهما تحقق الإيمان والعمل الصالح، ومن الملاحظ أن الخطاب في الآية جاء بصيغة الجمع: (آمنوا منكم، ليستخلفنهم)، ولم يأت بصيغة الفرد للتأكيد على ما نحن بصدد تقديم البراهين عليه، من أن التغيير يكون بعموم المجتمع لا بخصوص الأفراد، كالحكام على سبيل المثال. ثم اختُتمت الآية بشرط آخر مُناطٍ به سلامة الإيمان وصحته، وهو عدم الشرك لضمان سلامة توحيد كلمة (لا إله إلا الله)، ولو كان شيئاً يسيراً كما في قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

الأحاديث النبوية:

- عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي (ﷺ) دخل عليها فزعا يقول: (لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بين أصبعيه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث) [1].

ودلالة الحديث: أن الهلاك ينزل بالعباد إذا كثر الخبث، ولا تتحقق كثرة الخبث في المجتمع إلا بفساد أكثره، وفساد الحاكم وحده دون المجتمع لا يتحقق به كثرة الخبث، فثبت أن العذاب ينزل بذنوب الأقوام من أهل القرى رعاة ورعية، وليس بذنوب الحكام فقط.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

- وعن أبي أمامة ﷺ قال: قال (ﷺ): (لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، فأولهن نقضاً الحكم، وآخرهن الصلاة)[1].

ودلالة الحديث: أن إعادة عروة الحكم إلى موضعها في التطبيق، لا بد أن يسبقها إعادة تطبيق العرى الأخرى بدءا من الصلاة وهكذا، فإن القاعدة العامة تقول: (أول قطعة تفكك، آخر قطعة تركب).

- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): (ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) [2].

قال ابن حجر:

(قال الخطابي: اشتركوا أي الإمام والرجل ومن ذكر في التسمية، أي في الوصف، بالراعي، ومعانيهم مختلفة، فرعاية الإمام الأعظم حياطة الشريعة بإقامة الحدود والعدل في الحكم، ورعاية الرجل أهله، سياسته لأمرهم وإيصالهم حقوقهم، ورعاية المرأة تدبير أمر البيت والأولاد والخدم والنصيحة للزوج في كل ذلك، ورعاية الخادم حفظ ما تحت يده، والقيام بما يجب عليه من خدمته)[3]، انتهى.

وقال النووي:

(قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره. ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته)[4].

---

(١) (صحيح)، رواه ابن حبان في (صحيحه)، وصححه الشيخ الألباني في (الترغيب والترهيب).

(٢) متفق عليه.

(٣) (فتح الباري) (١١٣/١٣).

(١) (شرح النووي على صحيح مسلم) (٢١٣/١٢).

وقال القرطبي في شرح قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ {النساء:٥٨}.

(فجعل في هذه الأحاديث الصحيحة كل هؤلاء رعاة وحكاماً على مراتبهم)[١]، انتهى.

قلت: وهكذا تكتمل دوائر المسؤولية دون إفراط ولا تفريط. وهذا الأمر يعكس عظمة الإسلام العظيم حيث لم يجعل قيام الدين مُناطاً بفرد، أو بفئة من الناس أبداً، فهو دين الجماعة.

- عن أبي أيوب ﷺ قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (ما بعث الله من نبي ولا كان بعده من خليفة إلا له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، فمن وقي شرها فقد وقي)[٢].

قال ابن حجر في الشرح:

(ونقل ابن التين عن أشهب: إنه ينبغي للحاكم أن يتخذ من يستكشف له أحوال الناس في السر، وليكن ثقة مأموناً فطناً عاقلاً، لأن المصيبة إنما تدخل على الحاكم المأمون من قبوله قول من لا يوثق به إذا كان هو حسن الظن به، فيجب عليه أن يتثبت في مثل ذلك)[٣]، انتهى.

قلت: إذا كان تحقيق العدل في الرعية مقصود التشريع الإلهي، وقد أنيط هذا الأمر بالحاكم، وأمر الحاكم إنما يكون بأهل مشورته وبطانته الخيرة، فإنه يلزم الرعية أن يجعلوا من أنفسهم بطانة لحاكمهم ولا يتركونه وشأنه لشياطين الإنس والجن، ولا أن يتعففوا عن أداء هذا الواجب، وخاصة في الأزمنة التي يقل فيها الأكفاء من الأمناء الصالحين، فإنهم لو فعلوا ذلك وتخلوا عن مواقع المسؤولية، فقد خدموا أعداء الأمة وساهموا في تسلط بطانة السوء على رقابهم، في حين أنهم

---

(٢) (تفسير القرطبي) (٢٥٨/٥).

(٣) رواه البخاري رقم (٦٢٣٧)، ورقم (٧١٩٨)، وفي رواية صفوان بن سليم يقول: (ما بعث الله من نبي ولا بعده من خليفة).

(١) (فتح الباري) (١٩٠/١٣).

مأمورون بأن لا يتخذوا بطانة من دونهم، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ {آل عمران:١١٨-١١٩}.

يقول ابن كثير في تفسيرها:

(يقول تبارك وتعالى ناهيا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة: أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم. والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالاً، أي يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة، ويودّون ما يعنت المؤمنين، ويحرجهم ويشق عليهم .... ثم قال تعالى: (قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)، أي قد لاح على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل).انتهى.

قلت: هذا وقد كثر المنافقون الذين يتربصون بالإسلام وأهله في هذا الزمان، وعلى رأسهم كثير من المنتمين للحركات القومية والاشتراكية من بعثية وناصرية وغيرهم، إذ ينطلقون بقوة إلى مهادنة ومداهنة الإسلاميين باعتبارهم القوة الكامنة (الرعاع) التي هم بحاجة ماسة لها مرحلياً للسيطرة على ما تبقى من الدول غير الاشتراكية في العالم الإسلامي فتنبه.

فهم يظهرون الولاء الظاهري للحكم القائم المستهدف، مع أنه قد بدت بعض البغضاء من أفواههم مستغلين هامش الديموقراطية، وما تخفي صدورهم أكبر، وهو تغيير النظام بآخر اشتراكي أو شيعي رافضي.

إذن لزم الأمة أن تجعل من نفسها البطانة الصالحة للحاكم دون غيرها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، حتى يستقيم أمره ويسعد الناس بعدله. وعليه يلزمها قبل ذلك، السعي إلى إيجاد البطانة الصالحة التي

ستقوم بأداء هذا الواجب، وذلك بتربية الأجيال الناشئة، ولا يكون ذلك بدون إيجاد الأسرة المسلمة ولا الفرد المسلم.

- وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله (ﷺ): (.. ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[1].

نلاحظ من هذا الحديث الشريف، أن صلاح الفرد أو فساده مرتبط بصلاح قلبه أو فساده وليس مرتبطاً بصلاح الرعاة أو فسادهم. فكم من قلوب صلحت مع فساد رعاتها؟ وكم من قلوب فسدت مع صلاح رعاتها؟

فلا يوجد للحاكم تأثير سحري على قلوب العباد ليصلح أو يفسد. فلو كان مجرد وصول الرجل الصالح إلى الحكم في مجتمع فاسد، يغير واقع المجتمع بقرار ملزم منه، لاتخذ من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة، فعدوله عن ذلك وتركه للعروض المغرية التي تقدمت له بها قريش، مقابل ترك الدعوة، دل على مخالفة هذه الطريقة لسنة الله تعالى في تغيير المجتمعات. فترك نقل السنة، نقل للترك.

- وقال رسول الله (ﷺ): (من ولي منكم عملاً فأراد الله به خيراً جعل له وزيراً صالحاً، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه)[2].

قلت: وهذا الحديث يعزز مفهوم الحديث السابق. إذ كيف يتحقق مراد الله تعالى بالخير لولي الأمر دون وجود الوزير الصالح ؟ وكيف يوجد الوزير الصالح دون وجود المجتمع الصالح؟ وكيف يكون ذلك دون وجود الأسرة المسلمة والفرد المسلم؟

من القصص القرآني:

- **قصة موسى عليه السلام مع فرعون:**

---

(١) متفق عليه.

(١) تخرج السيوطي: (ن) عن عائشة. تحقيق الشيخ الألباني: (صحيح) انظر حديث رقم: (٦٥٩٦) في (صحيح الجامع). و(سنن النسائي) (١٥٩/٧)، بسند آخر وهو صحيح. وفي (السلسة الصحيحة) (٨٨١/١).

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ {ابراهيم:٦}.

يقول ابن كثير:

(إن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته... مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل. ويقال بعد تحدث سُمّاره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة، وهكذا جاء حديث الفتن كما سيأتي في موضعه في سورة طه إن شاء الله تعالى فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل وأن تترك البنات)، انتهى.

ولكن بعد أن صدر الأمر الفرعوني هذا-باعتباره أمرا إلهياً عند قومه-بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل خشية أن يزول ملكه على يد رجل منهم، نجد أنه لم يطبق هذا الأمر على المعني بالقضية لمعارضة امرأة فرعون تنفيذ حكم القتل في موسى الرضيع حين رأته، فقالت كلمتها: لا تقتلوه.

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾{القصص:٩}. مما يدل على أن حكم الحاكم قد يتخلف أحيانا بأتفه الأسباب ممن حوله، وهذا يؤكد على أثر البطانة في حكمه. فثبتت ضرورة إيجاد البطانة الصالحة أولا كي تعين الحاكم على الخير والاستقامة.

لكن من أين تأتي البطانة الصالحة؟

إنها، طبعاً إفراز من المجتمع، فإن كان المجتمع صالحاً تكون البطانة صالحة، وإن كان المجتمع سيئاً ـ كما هو واقعنا ـ تكون البطانة سيئة.

فرضية:

تقول: لو أن مجتمعاً فاسقاً، استيقظ يوما ما ليجد حاكمه، بقدرة الله تعالى، قد صلح أو آمن، فهل بالضرورة أن يتوب المجتمع من ساعته ويرجع إلى الله تعالى؟

مما مضى- أخي القارىء - يتضح لنا بطلان الزعم بأن صلاح المجتمع وفساده مناط بصلاح الحاكم وفساده، فقد تاب النجاشي وآمن ولم يقدر أن يظهر إيمانه فضلاً عن أمر رعيته به. وهرقل عظيم الروم لم يقدر على جبر حاشيته على اتباع النبي (ﷺ). فهذه النظرة الصنمية للحاكم، وإضفاء صفة الإلهية عليه، كأنه يقول للشيء: كن فيكون، نظرة خبيثة خبث الشرك نفسه، يقعد الناس بسببها عن القيام بواجباتهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويترك بذلك المجتمع للتراجع إلى الخلف يوماً بعد يوم، حتى يغدو مجتمعاً فاجراً بمعظمه، وفي هذا لفت نظر لأولئك الذين يدندنون حول (شرك القصور)، مع أنهم أقرب إلى التورط في ذلك، ذلك بأنهم أعطوْا الحاكم المنشود هالة العصمة التي لا تكون لغير نبي، ولربطهم النجاة في الدارين به، مع قيام الأدلة الواقعية على خلاف ذلك، عصمنا الله وإياهم من اتباع الهوى.

وحتى لا يساء الفهم ويهمش دور الحاكم بالكلية فنقع في انحراف في الطرف الآخر، وحتى لا نغفل حدود دوائر المسؤولية فيختلط بعضها ببعض فيتقاعس الحاكم عن الواجبات المناطة به ويلقي بالمسؤولية على عاتق الرعية، وكذلك حتى لا تلقي الرعية بمسؤولياتها وواجباتها على عاتق الحاكم، بإحدى الحجج السابقة التي مر مناقشتها، لا بد لك أخي القارىء أن تستذكر ما مر معك قريباً بهذا الخصوص.

وبالإضافة إلى ذلك أقول: إن الحاكم وحاشيته الصالحة، تكون سيطرتهم على الساحة المكشوفة بقدر قوة أفراد الحاشية، والجماعات التي خلف هذه الحاشية تدعمها، فكلما ضعف إيمانهم وخارت عزائمهم، ونخرت فيهم أسباب الفساد الأخلاقية المنافية للعدل والصدق والأمانة من اعتبار المحسوبيات وقبول الرشاوى والوصولية، أدى ذلك إلى ضعف واضح في الجهاز الحكومي، وبالتالي في تطبيق الأحكام والقوانين مما ينعكس سلباً على سمعة الدولة والنظام الحاكم. فيجد كل صاحب غرض ما يريد في تأليب غثاء الناس ضدها، مما يعين المتربصين من أعدائنا أمثال الاشتراكيين على تحقيق أطماعهم وإسقاط أنظمتنا الإسلامية المعارضة والمعادية للاشتراكية. وبهذا المعنى يكون

البعض منا قد سعى مع حسن النية في جلب المفاسد أو تكثيرها وهو لا يعلم.

وكلما قوي الإيمان في أفراد الحاشية، كانت فاعليتهم في تطبيق الأحكام ومنع ظهور المنكرات أعظم، فالقضية إذن نسبية. ومن جانب آخر إذا كان المنكر مما يقع في الساحة المستورة، فكيف للحاكم وحاشيته الوصول إليه ومنعه؟

وأضرب مثلا لتوضيح الأمر، قال تعالى:﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ {الإسراء:٣٢}.

ولمنع وقوع الزنا في المجتمع لا بد من محاربته ومراقبته في كل مكان. فعلى الساحة المكشوفة، يستطيع الحاكم ببطانته الصالحة إغلاق دور الزنا المباشر، وكل ما يؤدي إلى وقوع الزنا، مثل حفلات الرقص العامة، وبرك السباحة العامة، ومخالفات الشواطئ المختلطة، ورياضة النساء التي تتكشف فيها عوراتهنّ، من تزلج وألعاب القوى والسباحة والرقص في الماء، ومسابقات ملكات الجمال وغيرها الكثير.

كما يستطيع الحاكم ببطانته الصالحة أن يمنع جميع مظاهر الاختلاط المحرم في الساحات والأماكن العامّة والجامعات والمواصلات العامّة، وكذلك أن يحدّ من مظاهر السفور والعريّ المنتشر في الشوارع، والسينما والصور الفاضحة، وأن يراقب ما يجوز وما لا يجوز نشره من مطبوعات ومنشورات وصحف ومجلات، وما شاكل ذلك من أمور.

أما على الساحة المستورة فإن دور الحاكم وبطانته الصالحة ينتهي ليبدأ دور أصحاب المسؤوليات الأخرى من آباء وأمهات ومربين وكل من له علاقة بالمنكر، أي: إن الحاكم لا يستطيع منع الزنا في البيوت المستورة، ولا الاختلاط المحرم ولا المنكرات في الأسر. كما أنه لا يفعل شيئاً لما يجري من مخالفات ومحرمات داخل المؤسسات الخاصة، والمكاتب، ولا داخل سيارات الأجرة الخاصة والعامة، ولا التعري بين الأقارب ومع الأصحاب، وما يجري داخل البيوت من منكرات الأعراس، ولا يستطيع كذلك أن يمنع ما تعرضه قنوات الدول الأخرى غير الملتزمة الفضائية وغير الفضائية على شاشات التلفاز والانترنت، ولا ما يجري تبادله كذلك من مخالفات

وصور فاضحة بين الشباب والشّابّات في أجهزة الهواتف النقالة. ولا يستطيع أن يتتبع جميع الأماكن والشوارع التي تظهر فيه النساء الكاسيات العاريات وخاصة ما يجري في القرى والأرياف بعيداً عن أعين السلطة.

وهنا تجدر الملاحظة بأنه، أينما غاب الرقيب انتهكت المحرمات، حتى لو فرضت القوانين الرادعة لذلك، خصوصاً في مجتمع منهار أخلاقياً وسلوكياً، لذا أكد الإسلام على مراقبة الله تعالى في السر والعلن.

فكلما ضعف الجهاز التنفيذي[1] عند الحاكم ومراقبته لله تعالى انتشرت مظاهر المحرمات لضعف المتابعة، بل يؤدي إلى وقوع هذا الجهاز فيما حرم الله أو خالف القانون.

وعندنا في الأردن قانون يمنع التدخين في المكاتب والأماكن العامّة، ويقضي بدفع غرامة ماليّة على كل مخالف، ورغم التأكيد المستمر عليه من الحكومة،إلا أننا لم نر لهذا القانون أثراً، لانتهاكه من قبل الكبير والصغير، من داخل الجهاز التنفيذي أو من خارجه، فغدا حبراً على ورق، وذلك بسبب غياب البطانة الصالحة، بل غياب البطانة الصالحة المؤثرة.

وعليه، يجب التعاضد وتركيز العمل على إصلاح الرعية ورفع ظلمهم لأنفسهم والانشغال بذلك، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح للحاكم بشروطه وضوابطه.

درجات التغيير ومراتبه

لما خلق الله تعالى الخلق ابتلاهم أيهم أحسن عملاً، فلا زالوا على التوحيد حتى اجتالتهم الشياطين، فأرسل الله لهم النبيين تترى يدعونهم إلى الإسلام - دين الأنبياء جميعاً - من جديد، وهو دين الرحمة، يرحم الله به عباده الصالحين، فكانت هداية الخلق للحق مقصودة لذاتها، وهي أسمى مقصد من مقاصد الديانات السماوية جميعها.

---

(١) الجهاز التنفيذي والجهاز التشريعي في الدولة يتشكلان من أشخاص مواطنين في الأصل، قبل أن يكونوا حكوميين.

لذا حرص الإسلام باعتباره آخر الشرائع وناسخاً لها كل الحرص على إخراج العباد من الظلمات إلى النور، وأوجب لأجل ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لتحقيق أمرين اثنين:

الأول: زيادة الخير في الأمم من خلال الأمر بالمعروف، وأعظمه تحقق التوحيد وأركان الإسلام.

الثاني: التقليل من المنكرات من خلال النهي عن المنكر، وأكبره الشرك بالله والكبائر.

وبما أن أهل الخير يتفاوتون في الدرجات فيما بينهم، وأهل الشر كذلك، فإن المطلوب:

١- رفع نسبة الخير في المجتمع، وذلك بزيادة الخير من درجة إلى أخرى- أي من درجة الكمال إلى الأكمل -.

٢- التقليل من نسبة الشر في المجتمع من الدرجة الأسوأ، إلى الدرجة الأقل سوءاً.

وتحقيقاً للمعاني السابقة أصّل أهل الفقه قواعد أصوليّة، منها قاعدة (ترجيح خير الخيرين، ودفع شر الشرين)، وهذا باب عظيم من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ بالعمل به تتنزّل رحمة الله تعالى على العباد وينجون من عذابه.

يقول ابن تيمية رحمه الله في هذا المعنى:

(فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ولا دفع أخف الضررين بتحصيل أعظم الضررين، فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومطلوبها ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا جميعا ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعاً)[١].

ويقول:

(إذ الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، والورع ترجيح خير الخيرين بتفويت أدناهما ودفع

---

(١) (فتاوى ابن تيمية في الفقه) (٣٤٣/٢٣).

شر الشرين وإن حصل أدناهما)[1].

ولتوضيح الأمر، علينا أن نتصوّر الرسم التالي:

شكل(١)

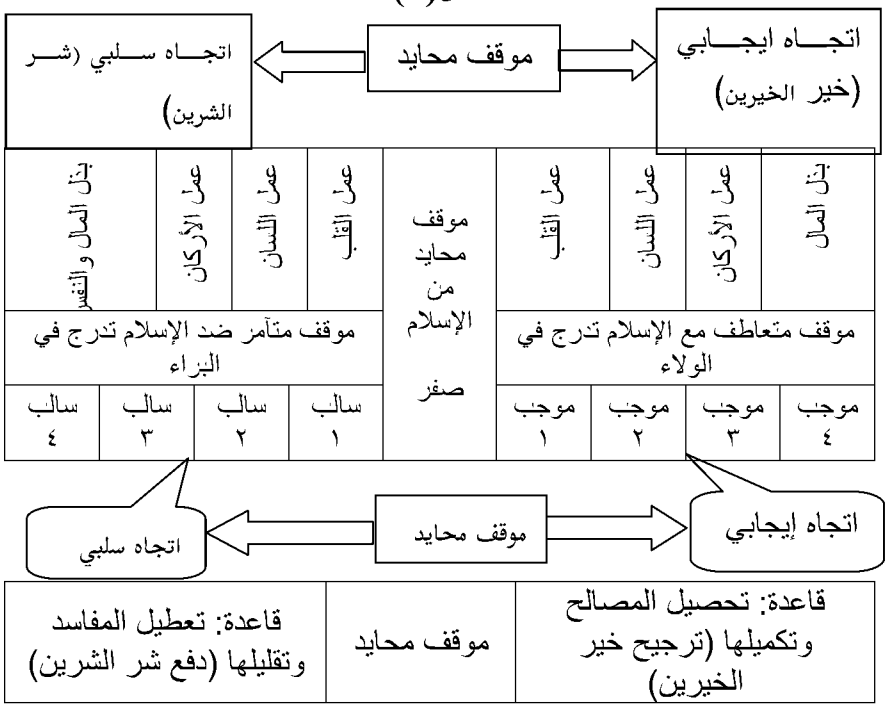

يمثل هذا الرسم موقف الشخص المقصود أو الجماعة أو الدولة من الإسلام كما يلي:

أ- نقطة المنتصف (الصفر)، وتمثل موقف الحياد من الإسلام، غير مؤيد وغير معارض.

ب- الاتجاه إلى اليمين، ويمثل أربع درجات:

١- عمل القلب بالإيمان، ويشمل (قول القلب، أي تصديقه، وعمل القلب، أي خضوعه وانقياده) وهو أصل الإيمان، أو حدّه الأدنى[2].

---

(١) (فتاوى ابن تيمية في الفقه) (١٩٣/٣٠).

(١) (فتاوى ابن تيمية في الفقه) (٦٣٩/٧، ٣٧٧، ٦٤٤، ٢٦٣، ٦٣٧).

٢- عمل باللسان: وتشمل الدرجة السابقة، ويضاف إليها التعبير عن التعاطف مع الإسلام باللسان، كأن يقول: الإسلام دين الحق وهكذا.

٣- عمل بالأركان: وتشمل الدرجات السابقة وإقامة أركان الإسلام في النفس (صلاة، صوم...)

٤- بذل النفس والمال، وتشمل الدرجات السابقة جميعاً، ويضاف إليها بذل المال والنفس دفاعاً عن الإسلام والدعوة إليه.

ج- الاتجاه إلى اليسار، ويمثل بأربع درجات:

١- عمل القلب بالكفر، ويشمل (قول القلب، أي تكذيبه، وعمل القلب، أي عدم الخضوع والانقياد) وهو حد الكفر الأدنى.

٢- عمل باللسان، ويشمل الدرجة السابقة ويضاف إليها استعمال اللسان في الصد عن الإسلام، كأن يقول: الإسلام دين رجعي وباطل، أو يسخر من العلماء.

٣- عمل بالأركان، ويشمل الدرجات السابقة، ويضاف إليها ترك الواجبات، وفعل المحرمات.

٤- بذل النفس والمال، ويشمل الدرجات السابقة ويضاف إليها بذل المال والنفس في محاربة الإسلام.

درجات الأمر بالمعروف:

درجات الإيمان، ويمثلها الدرجات من موجب (+١) إلى موجب(+٤)، أدناها الدرجة الأولى (عمل القلب) وأعلاها الرابعة بذل النفس والمال، فلو استطاع أحد الدعاة أن ينقل شخصاً من الدرجة الأولى(عمل القلب: أي تصديقه وخضوعه)، إلى الدرجة الثانية (عمل اللسان: أي التعاطف مع الإسلام بالقول) لكانت نقلة في الاتجاه الإيجابي، فكيف لو نقله إلى الدرجتين الثالثة أو الرابعة؟.

وهكذا لو استطاع أن ينقل شخصاً من الدرجة الثالثة إلى الرابعة أو من الثانية إلى الثالثة، إذن فكل نقلة باتجاه اليمين تعتبر نقلة إيجابية، وبهذا العمل نكون قد طبقنا قاعدة تحصيل المصالح وتكميلها، أو ترجيح خير الخيرين. ونكون قد والينا المؤمنين بقدر درجة إيمانهم وبذلهم للإسلام.

ومن المعلوم أن الانتقال ما بين الدرجات (+١) و(+٤)، لا يلاحظه البعض من الناس، وخاصة ما بين الدرجة والتي تليها مباشرة، مع انه باب من أبواب الدعوة، إذ به يزداد المعروف في الأرض تدريجياً، وهذا مقصود لذاته.

درجات النهي عن المنكر:

درجات الكفر، ويمثلها الدرجات من (-١) إلى (-٤) أدناها الدرجة (-١): درجة (كفر القلب: أي تكذيبه، وعدم الخضوع والانقياد) وأعلاها (-٤): (بذل النفس والمال في الصد عن الإسلام). فلو استطاع أحد الدعاة أن ينقل شخصاً من الدرجة (-٤) درجة: بذل المال والنفس في محاربة الإسلام، إلى الدرجة (-٣): التي يقوم فيها الشخص بالمنكرات، لكانت نقلة في الاتجاه الإيجابي، فكيف لو نقله من الدرجة (-٤) الى (-١): درجة (كفر القلب)؟.

إذاً بهذا العمل وعلى الرغم من أننا لم نوفق بإخراج الشخص من الكفر إلى الإيمان، نكون قد عملنا بقاعدة تعطيل المفاسد وتقليلها، أو دفع شر الشرين. وعادينا الكافرين بقدر درجة كفرهم وصدهم عن دين الإسلام، فكلما ازدادوا بموقفهم سوءاً، زيد عذابهم. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾{النحل:٨٨}. ومن المعلوم أن الانتقال ما بين الدرجات (-٤) و(-١)، لا يلاحظه كثير من الناس، وخاصة ما بين الدرجة والتي تليها مباشرة،مع أنه باب من أبواب الدعوة، إذ به ينحسر الفساد في الأرض تدريجيا، وهذا مقصود لذاته كذلك. فلو أن مسلما، قام بعمل كانت نتيجته بقاء الكفر، ولكن انتقل موقف أهله من (-١) الى (-٢)، أو من (-٣) الى (-٤)، كان عمله محرماً. فكيف به لو قام بعمل أخرج به البعض من دائرة الإسلام إلى الكفر، وهو يظن نفسه محسناً؟

ومما يجدر التنبيه إليه: أن البعض ممن قل علمهم بهذا، قد يصنف العلماء العاملين بهذا المنهج الأصولي بالعمالة، إذا أفتوا بدفع

الشر الأكبر بالشر الأصغر، إذا لم يندفعا جميعاً، ومثاله، انظر الحاشية[1].

ولتوضيح الأمر أكثر نضرب مثلاً بما حدث في صلح الحديبية، ولماذا سمي بالفتح المبين ؟

لقد بدأت دعوة رسول الله × بمفرده، ومع الزمن والصبر على أذى المشركين، بدأ الناس بالانتقال من درجات الكفر{(-٤)(-١)} إلى درجات الإيمان {(+١)-(+٤)}، ولقد كانوا متفاوتين في موقفهم الأولي من الإسلام حين دُعوا إليه، فلم يكونوا كلهم في الدرجة (-٤) المعادية للإسلام بالمال والنفس، كموقف أبي جهل لعنه الله، ومع استمرار الدعوة أخذ المشركون بالانتقال من درجة إلى التي تليها باتجاه الإسلام، ومنهم من دخل فيه وبدأ بالترقي في درجات الإسلام {(+موجب١)-(+موجب٤)}، إلا أن الدرجة الرابعة (+موجب٤) في العهد المكي، كانت ببذل المال في سبيل الدعوة فقط، ولم يكن قد فرض الجهاد بعد.

وبعد الهجرة إلى المدينة، قويت شوكة المسلمين، وقاموا بالعديد من الغزوات، وعلى رأسها (بدر الكبرى). وفي السنة السادسة من الهجرة وقّعَ الرسول صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية مع قريش، وأخذ بنشر الدعوة خارج المدينة المنورة مستغلاً فترة وضع القتال لمدة عشر سنين، فازداد عدد المسلمين، فدخل فيه في غضون سنتين أكثر ممن أسلموا في تسعة عشر عاماً مضت، وممن أسلم في هذه الفترة خالد بن الوليد رضي الله عنه.

يقول ابن كثير في تفسير أول سورة الفتح:

---

(١) دفع الخطر الاشتراكي الأكبر، بالخطر الرأسمالي، ومن صور الاشتراكية (النظام الإيراني الخميني، والنظام البعثي الاشتراكي في العراق وسوريا، ونظام كل من ليبيا، وتونس، والجزائر، والصين، وكوريا الشمالية، وكوبا، وروسيا الاتحادية وهكذا. ومن صور الرأسمالية: دول أوروبا، وأمريكا وأمثالها. انظر كتابنا (المنابرالإعلامية بين تجاهل الخطر الاشتراكي وظاهرة معاداة أمريكا).

(فقوله: (إنا فَتحنا لك فتحاً مُبيناً) أي: بَيّناً ظاهراً، والمراد به صلح الحديبية. فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان)

ويقول الطبري في تفسيره:

(قوله: (فَجَعلَ مِن دُون ذَلِك فَتحاً قريباً) يعني: صلح الحديبية؛ وما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب وآمن الناس كلهم بعضهم بعضاً، فالتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر).

أقول: لماذا تضاعف عدد المسلمين في غضون سنتين فقط؟

نعلم مما سبق من قول الطبري وابن كثير وغيرهما، أن السبب في ذلك، هو توقيع الهدنة ووضع الحرب، لأن مناخ الحروب يؤجج النفوس ويشحنها للدفاع عن المعتقدات والأرض والعرض، فتأخذ المشركين حمية الجاهلية.

فلو نزل الرسول (ﷺ)، على رأي عمر بن الخطاب وعامة الصحابة رضي الله عنهم، وقاتلوا المشركين حين منعوهم من أداء العمرة، وقامت الحرب، لتراجع كل أولئك الذين كانوا قد اقتربوا من الإسلام عدة درجات عن درجاتهم، فبعضهم كان قد أوشك على الدخول في الإسلام، فوصل إلى الدرجة (الصفر) درجة الحياد، وبعضهم وصل إلى الدرجة (-١): درجة (كفر القلب: أي تكذيبه، وعدم الخضوع والانقياد)، وبعضهم إلى الدرجة (-٢): درجة (استعمال اللسان في الصد عن الإسلام)، وهكذا. وبهذا يتبين لنا أن النصر الحقيقي والفتح المبين، هو فتح القلوب للدخول في الإسلام، ويكون أحياناً في الموطن الذي يراه الناس، موطن ذل وهزيمة، فمن كان يتصور أن في هاتين السنتين سيدخل في الإسلام من المشركين أكثر من عدد من أسلم منذ تسعة عشر عاماً مضت؟ فكان ذلك سبباً وجيهاً آخر لفتح مكة. ألم يرتجف أبو سفيان من عدد جيش فتح مكة المقدر بعشرة آلاف مقاتل من المسلمين؟

لذا على المسلين أن يحرصوا على كل أسلوب حسن يقرب المشركين من الإسلام ولو خطوة، وأن يتجنبوا كل ما يبعدهم عن الإسلام ولو خطوة.

فهل ما يقوم به بعض الجهلة باسم الإسلام وتحت يافطات إسلامية من أعمال إرهابية وصلت إلى حد ذبح الأبرياء[1] والتفاخر بذلك ونشره مصوراً في وسائل الإعلام، يقرب غير المسلمين من الإسلام، أم أن هذه الأعمال ستشكك حديثي العهد بهذا الدين، فضلاً عن أن يدخلوا فيه؟

ألم يقل الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ {الممتحنة:٨}.

ألم تحمل الآية رداً مسبقاً على تصورات البعض الخاطئة في هذه الأيام، ممن يعتقدون أن مجرد معاملة من لم يقاتلوننا في ديننا من غير المسلمين، بالبر والإحسان يُعَدّ من باب الموالاة لهم؟

بناء على ما سبق ذكره، فإنه يحسن أن نبين العلاقة الطردية بين الأعمال الصالحة من جهة ودرجة التغيير إلى الأحسن في المجتمع من جهة أخرى. وكذلك العلاقة العكسية القائمة بين الأعمال السيئة من جهة، ودرجة التغيير إلى الأحسن في المجتمع من جهة أخرى.

فقد مضت سنة الله تعالى أن تغيير الأنفس في المجتمع بما يرضي الله تعالى بنسبة تعمّ فيه وتظهر، وتكون هي الأغلب، سيؤدي ذلك بإذن الله وتوفيقه إلى تغيير ما بالقوم إلى الأحسن. والتغيير الكلي المطلوب، هو محصلة إيجابية لتغيير جميع ما في النفس البشرية من الأفكار والمعتقدات التي تبنى عليها الأعمال والأقوال.

وعليه فإنه يلزم كل فرد من أفراد المجتمع الحرص على ما يلي:

---

(١) ومن صور أعمالهم المنحرفة تكفيرهم لمن مارس حقه في الانتخابات في العراق، ومن ثم قتلهم في مراكز الاقتراع، إذ قاموا يوم الاقتراع بـ (١٣) عملية قتل فيها العشرات من المقترعين، كما تناقلته وسائل الإعلام.

١-أن يتعرف على درجة تعاطفه مع الإسلام، هل هي مؤيدة بالقلب فقط، أم أنها بالقلب واللسان، أم أنها أرفع من ذلك.

٢-المبادرة بنقل نفسه من الدرجة التي يشغلها حالياً، إلى الدرجة التي تليها، والتي تليها، وهكذا، لقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾{آل عمران: ١٣٣}. وإن لم يستطع أن يترقى من درجة إلى أخرى، عليه أن يترقى في الدرجة الواحدة، وذلك لتفاوت أهل التوحيد في الدرجة الواحدة، فعلى سبيل المثال، يتفاوت المصلون في أجرهم بقدر حسن إقامتهم للصلاة: أركانها، وطهورها، وخشوعها، ونوافلها، وموضعها. وكذلك يتفاوتون في الصدقات، وغيره.

٣- أن يدعوا المسلمين إلى الانتقال من درجة إلى أخرى تليها في الإيجابية، ليزداد الإيمان في المجتمع، فتقترب محصلته من الدرجة التي يرضاها الله تعالى لاستحقاق التغيير الإيجابي المنشود في القوم.

٤- على المسلم أن يشعر أنه بترقية أي فرد من أفراد المجتمع، من درجة إيجابية إلى أخرى، يزداد الإيمان في المجتمع، فيقترب من الدرجة التي يرضاها الله تعالى لاستحقاق التغيير الإيجابي المنشود في القوم. فإن أي زيادة في المعروف مهما قلّ شأنه في نظر فاعله، يعدّ بركة، قال (ﷺ): (لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق) {رواه مسلم}.

٥- على المسلم الاعتراف، بأن تراجعه، أو أي فرد من أفراد المجتمع، من درجة إلى التي تليها في الاتجاه السلبي، سيؤدي إلى نقصان درجة الإيمان في المجتمع، وبالتالي نقصان معدله، أي أنه بهذا التراجع يساهم بالابتعاد عن الدرجة التي يرضاها الله تعالى لاستحقاق التغيير الإيجابي المنشود في القوم، وبالتالي يساهم في الهزيمة التي ستلحق بالمسلمين. أي: إذا ترك مصلٍ صلاته، أو صائم صومه، أو داعيةٌ دعوته، وأمثال ذلك، أو ارتكب معصيةً صغرت أم كبرت، فإن هذا التراجع عن أداء واجب أو الجرأة على فعل محرم، يؤدي إلى ما ذكرنا. وبهذا سندرك المعاني العظيمة،

والعبر في قوله (ﷺ): (مثل القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها. فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً).

{رواه البخاري والترمذي}.

٦- فإنه من الخير، أن يقوم الدعاة والوعاظ والعلماء بنشر هذه المفاهيم في الناس، ليقبلوا على الخير أو يزدادوا بها خيرا، وليجتنبوا الشر، أو ينقصوا منه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

قواعد يجب مراعاتها عند التغيير:

١- **التدرج في تطبيق الإسلام العام حسب الحال والقدرة:**

لقد اتسم التشريع الإسلامي بالتدرج، سواء كان ذلك في العقائد أم في الأحكام، ففي الوقت الذي كان فيه التركيز على العقائد في المراحل الأولى من الدعوة في مكة المكرمة، تأخر فرض كثير من الأحكام بعد الهجرة إلى المدينة، حتى إن الكفار ضاقوا بهذه السنة الكونية، وطالبوا بإنزال القرآن جملة واحدة.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ ﴾ {الفرقان:٣٢}. ثم أكد القرآن الكريم على هذه السنة الكونية، سنة التدرج في تطبيق الإسلام في قوله تعالى: ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ ﴾ {الاسراء:١٠٦}.

وهذا التدرج الذي نعنيه يكون في التطبيق وليس في التشريع. فقد اكتمل الدين والحمد لله. ولا يصار إلى تطبيق هذه السنة إلا في المجتمعات التي قد غلب الجهل في الدين على أفرادها، أو جديدة العهد بالالتزام بالإسلام، أو جديدة العهد بالكفر، قال تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ

ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـٔاًۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ {الحجرات: ١٤}.

لذا فقد بدأ الإسلام بغرس العقيدة وتقوية الإيمان في النفوس أولاً لتهيئتها لقبول الأحكام التي أخذت بالنزول فيما بعد تترى. ففرض صوم رمضان في السنة الثانية من الهجرة، أما الحج (ففرض في السنة السادسة على قول جمهور العلماء، وفي التاسعة أو العاشرة على قول ابن القيم)[1]. أما النهي عن المحرمات، فحرمت الخمر، وفرضت الحدود في المدينة المنورة، وهكذا.

ومن الأدلة على اعتبار سنة التدرج في التغيير:

(أ) أن الإسلام لم يمنع الرق دفعة واحدة، ولم يحسم أمره سريعاً، وذلك لحاجة المجتمعات الإنسانية إليه، ولكنه قام بخطوات مع الزمن أدت إلى تجفيفه وتطهيره من المجتمع.

والخشية تساورني من أن بعض الجهال بمقاصد الشريعة الإسلامية سيعيدون العبودية باسم تطبيق أحكام الإسلام، ضاربين عرض الحائط بما سيترتب على خطوتهم هذه من الإساءة إلى سمعة الإسلام في واقعنا المعاصر الذي ينتقص فيه العالم العبودية وعصورها الجاهلية، فيؤدي ذلك إلى إغلاق قلوب غير المسلمين أمام المد الإسلامي الزاحف، وتشكك قريبي العهد بالكفر منهم فيه.

لذا فتطبيق الإسلام دفعة واحدة على مجتمع لم يُسْلم أمره لله تعالى ينطوي على مخاطر كثيرة، وهو ضد سنة الله تعالى في التغيير، ويؤيد هذا القاعدة الفقهية المعروفة: أنه يجوز تأخير البيان إلى وقت الحاجة. وقد حاولت حركة طالبان في أفغانستان فرض أحكام الإسلام دفعة واحدة، كما ينادي بذلك حزب التحرير، فكرّهت الدنيا في الإسلام وفي المسلمين، وكان نهاية أمرها خسراناً مبيناً، وأدى ذلك إلى زوالها في وقت مبكر. ولو أنها اتخذت أسلوب التدرج والحكمة الحسنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكان أقرب إلى مراعاة مقاصد الشريعة السمحة، ولكن ما هكذا يا سعد تورد الإبل!!

---

(١) (فقه السنة) ، لسيد سابق، كتاب الحج.

(ب) **التدرج في تحريم الخمر على ثلاث مراحل:**

الأولى: بين فيها القرآن الكريم أن من نعم الله تعالى على العباد، ما سخر لهم من ثمرات النخيل والأعناب، وما يتخذون منه من سَكَر ومن رزق حسن، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾{النحل: ٦٧}. فقد لفت القرآن أنظار المسلمين، إلى أن السّكَرَ ليس من الرزق الحسن.

الثانية: أمرهم بعد ذلك بأن لا يقربوا الصلاة وهم سكارى، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ {النساء:٤٣}.

الثالثة: نزل التحريم كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة: ٩٠].

٢- **تغير الفتوى بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال:**

يقول ابن القيم تحت عنوان: (فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد):

(هذا فصل عظيم النفع جداً، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة، وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم، ومصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل. فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق (ﷺ) أتم دلالة وأصدقها ...

ونحن نذكر ـ والقول لابن القيم ـ تفصيل ما أجملناه في هذا الفصل بحول الله وتوفيقه ومعونته بأمثلة صحيحة).

ثم يتابع ابن القيم القول تحت عنوان: (الإنكار له شروط):

المثال الأول:

أن النبي (ﷺ) شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصحابة رسول الله (ﷺ) في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، وقالوا: أفلا نقاتلهم؟ فقال: (لا، ما أقاموا الصلاة) وقال: (من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر، ولا ينزعن يداً من طاعته). ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار، رآها من إضاعة هذا الأصل، وعدم الصبر على منكر فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه، فقد كان رسول الله (ﷺ) يرى بمكة أكبر المنكرات، ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام، عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم ومنعه من ذلك-مع قدرته عليه-خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر. ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه كما وجد سواء.

أربع درجات للإنكار:

فإنكار المنكر أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة.

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج، كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله، كرمي النشاب وسباق الخيل ونحو ذلك. وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد، وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تفرغهم لما هو أعظم من ذلك، فكان ما هم فيه شاغلاً لهم عن ذلك، وكما إذا كان الرجل مشتغلاً بكتب المجون ونحوها وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر، فدعه وكتبه الأولى وهذا باب واسع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي فأنكرت عليه وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم)[1]، انتهى.

ثم ذكر ابن القيم فصولاً عديدة مستدلاً بها على تغير الفتوى منها: (فصل: النهي عن قطع الأيدي في الغزو)،و(فصل: سقوط حد السرقة في المجاعة).

المجالس النيابية الديموقراطية وتغير الفتوى:

ومن الأمثلة المعاصرة على تغير الفتوى بتغير المكان والزمان والأحوال، حكم المشاركة في المجالس النيابية. فالحكم فيها على وجوه:

- عدم جواز، بل تحريم المطالبة بالمجالس النيابية الديموقراطية في الدول الإسلامية التي تكون فيها كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، والتي تحفظ فيها الضرورات الخمس وتصان، مثل المملكة العربية السعودية، لما يترتب على إقرار الحكم النيابي فيها، جعل كلمة الذين كفروا مساوية لكلمة الله تعالى، بحجة المساواة في الحريات العامة، وخصوصاً حرية التعبير عن الرأي.

---

(١) (إعلام الموقعين) (٣/٣-٦).

ولكن لو قامت الدولة بإقرار هذا النظام الديموقراطي تحت ضغط الواقع والجماهير - كما حصل في الكويت والأردن - وترتب على عدم الاستجابة لهذه المطالب مفسدة أعظم من وجود مفسدة الحكم الديموقراطي، أو فرض هذا النظام الديموقراطي بالقوة-كما حصل في العراق-فإنه لا يجوز للمسلمين ترك المشاركة في الحكم الديموقراطي بحجة كفره، لما في هذا الترك من ترك لمقاصد الشريعة، وفقه الموازنات، وإخلاء مواقع صنع القرار لغير المسلمين، وهذا يؤدي إلى الإضرار بالضرورات الخمس، ومصالح الإسلام والمسلمين عامة في هذا البلد.

- جواز المطالبة بالمجالس النيابية الديموقراطية في الدول الإسلامية التي تكون فيها كلمة الذين كفروا العليا، ولا تحفظ فيها الضرورات الخمس ولا تصان، مثل سوريا، والجزائر، وتونس، وليبيا، والعراق-قبل سقوط النظام الاشتراكي-وسائر الدول الاشتراكية عموماً. لما يترتب على إقرار الحكم النيابي فيها، من رفع القيود على الضرورات الخمس، وبالتالي رفع كلمة الله تعالى في المجتمع من خلال إتاحة الفرصة للدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا تقدح عملية المشاركة في المجالس النيابية الديموقراطية في براءة المشاركين من الشرك وأهله. وقد ارتكب أهل السنة في العراق أبشع جريمة في التاريخ الحديث-بعد سقوط الحكم الاشتراكي في العراق-حين تركوا مراكز صنع القرار لألد أعدائهم من الشيوعيين والشيعة والاشتراكيين، بحجج وأوهام، لا علاقة لها بمقاصد الشريعة، وفقه الموازنات[1]، فأدى ذلك إلى تمكين هؤلاء الأعداء من ديننا ورقابنا وأموالنا وأعراضنا حين تركوا لهم معظم مؤسسات الدولة المدنية والعسكرية والأمنية، ومعظم مراكز النفوذ في السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، وخاصة، أن أهل السنة في العراق، بما فيهم الأكراد، يشكلون أغلبية راجحة.

كما أنه من أعجب العجب أن يترفع، أو يزهد المسلمون، في استلام الحكم في الدولة وإدارة شؤونها بعد تمكنهم منها-كما حصل في

---

(١) فقد أفتى السيستاني الشيعة بالنار لكل من لا يشارك في الانتخابات، في حين أفتى الزرقاوي- وليس من أهل الفتيا- بالنار والتفجير لكل من يشارك من أهل السنة.

مصر بعد الانقلاب على حكم الملك فاروق-وتركها لجمال عبد الناصر الاشتراكي وزبانيته، ليفسد في أرض مصر وأهلها كما يشاء.

٣- **مراعاة الضرورات**:

الضرورات هي غير المصالح الضرورية للحياة. وهي تعني في الاصطلاح: (بلوغ المرء حداً إذا لم يتناول الممنوع هلك أو قارب)[١].

وقد أولت الشريعة الإسلامية قاعدة الضرورات أهمية خاصة، استنبطها الفقهاء من الأدلة الفقهية التفصيلية، منها: قاعدة (الضرورات تبيح المحظورات)، وقاعدة (الضرورات تقدر بقدرها). وهذه القواعد معلومة لعامة طلبة العلم، ومشتهرة بينهم. وهم يحسنون استعمالها في الأحكام المتعلقة بالضرورات الفردية فقط، خاصة في أبواب الأطعمة والأشربة. علماً أن للأفراد ضروراتهم، وللمجتمع ضروراته. يقول الدكتور يوسف القرضاوي:

(والضرورات الشرعية ليست كلها فردية، كما قد يتوهم. فللمجتمع ضروراته، كما للفرد ضروراته، فهناك ضرورات اقتصادية، وسياسية، وعسكرية، واجتماعية، لها أحكامها الاستثنائية التي توجبها الشريعة، مراعاة لمصالح البشر، التي هي أساس التشريع الإسلامي كله))[٢]، انتهى.

لعل البعض لا يعجبه هذا الاقتباس عن الدكتور القرضاوي، بحجة مخالفتنا له في بعض المسائل الفقهية، أو لعل هذا البعض من الناس، سيحذر من قراءة هذا الكتاب أو سيشهر بكاتبه لأجل هذا الاقتباس. والجواب على ذلك من وجوه:

- دلنا هذا الاعتراض الذي ليس في محله، على الأزمة التي يعيشها البعض في فهم فقه السياسة الشرعية، وسياسة التعامل مع المخالف. فهؤلاء بحاجة ماسة لعلاج أمرهم في هذا الباب بأسرع ما يمكن، كي لا يتطور الأمر بهم إلى جعل الأمر من باب الولاء والبراء الذي يؤدي إلى التدابر والتباغض والتلاعن، وقد يؤدي ببعض حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام إلى التقاتل.

---

(١) (الأشباه والنظائر)، (ص/٨٥).

(٢) (السياسة الشرعية) ، (ص٣٢٦)، ط/١، ١٩٩٨.

- ينظر في الاقتباس هل هو موافق للحق أم مخالف له، فإن كان موافقاً، ففيم الاعتراض إذن، وقد اقتبسنا عن أبي حامد الغزالي من قبل، وما أدراك ما الغزالي؟ فهو إمام الصوفية ومُقَعّدُها، ولكن أهل العلم قد شهدوا له بالحجة في علم الأصول. والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها.
- أما إذا كان الاقتباس غير موافق للحق، فلا يصار إلى ترك جميع أقوال صاحبه لأجله. ولو كان الأصل ترك جميع أقوال المخالف لنا في بعض المسائل، لتركنا جميع أقوال أهل العلم قاطبة. فما من عالم إلا وله من المسائل ما خالف بعض ما تراه أنت حقاً. فهل يجوز لك لأجل ذلك، ترك جميع أقوال الإمام أبي حنيفة، والإمام مالك، والإمام الشافعي، لعدم تكفيرهم تارك الصلاة تكاسلاً؟ أو ترك جميع أقوال الإمام أحمد لتكفيره تارك الصلاة؟ وهل يجوز لمن لا يرى جواز دخول الوزارات الحكومية والمناصب الرسمية في الحكومات الطاغوتية أن يترك جميع أقوال ابن تيمية، بحجة أنه يرى جواز ذلك؟ وهل يجوز لمن يرى كفر تارك عمل الجوارح بالكلية، ترك جميع أقوال الأئمة الأعلام الأربعة، وابن حزم، وابن تيمية، وغيرهم، بحجة أنهم لا يكفرونه؟ ما لكم كيف تحكمون؟!